

قاسم أمين

تحرير المرأة والتمدن الإسلامي

د. محمد عمارة

دار الشروق



قاسم أمين

تحرير المرأة والتمدن الإسلامي

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا: شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت: ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥ - برقيا: داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL, 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL 4372743/4 TELEX SHOROK 257796

د. محمد عمارة

قاسم أمين

تحرير المرأة والتمدن الإسلامي

دار الشروق

تقديم

ليست الريادة هي المعيار الوحيد الذي يكسب المفكر والمصلح مكاناً عالياً وهاماً في حركة تطور المجتمع الذي يعيش فيه ، وإن تكن لها ميزاتها ووزنها وتكاليفها التي تضفي على أصحابها الكثير من المجد والتقدير .

وفيما يتعلق بارتياد المفكرين والمصلحين في شرقنا العربي الاسلامي ، في العصر الحديث ، لميدان الدعوة الى تحرير المرأة المسلمة والشرقية ، هناك خلاف قائم بين عدد من الذين عرضوا بالتأريخ لذلك الحدث الذي حاول به هؤلاء المفكرون والمصلحون أن يتخطوا بالمرأة نطاق حريم العصور « المملوكية ـ العثمانية » المظلمة إلى أعتاب ورحاب الاستنارة واليقظة والتفتح التي أفاءها على الشرق عصر التنوير الذي بدأته مصر في عهد محمد علي (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨ م) ، وقادت الشرق إلى ساحاته منذ ذلك التاريخ .

فهناك من يرى ان فضل الريادة في هذه الدعوة ، إلى تحرير المرأة معقود لقاسم أمين ، وان « أول صيحة لهذا

التحرير هي صيحة قاسم أمين ، في كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) »[1] ومؤدى هذا الرأي أن الدعوة الى تحرير المرأة لم تعرفها مجتمعاتنا الشرقية ، ومصر بالذات قبل تاريخ صدور كتاب (تحرير المرأة) في سنة ١٨٩٩ م .

وهناك من يرى أن الأتراك العثمانيين كانوا أسبق من المصريين في سلوك هذا السبيل ، وأن الآستانة قد ارتفعت فيها هذه الصيحة قبل القاهرة ، وأن صحيفة (الجوائب) قد شهدت دعوة صاحبها أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٨ م) إلى تحرير المرأة قبل أن يولد قاسم أمين . . ويعللون سبق الأتراك إلى هذا الميدان « بكثرة اختلاطهم بالأجانب ، وسبقهم في الاطلاع على أسباب التمدن الحديث »[2] .

وإذا ما كان السؤال : أيهما أسبق في الدعوة لتحرير المرأة : أحمد فارس الشدياق ؟ أم قاسم أمين ؟ فإن البداهة تعطي السبق للشدياق . . فهو قد عاش ومات قبل أن يكتب قاسم عن المرأة وتحريرها ، وصحيفة (الجوائب) قد صدرت

---

(١) الدكتور محمد حسين هيكل (تراجم مصرية وغربية) ص ١٥٢، طبعة القاهرة، مطبعة مصر ـ بدون تاريخ.

(٢) «الهلال» تأبين قاسم أمين. انظر ص ٦ من تقديم الناشر لكتاب قاسم أمين «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ». طبعة الاسكندرية، سنة ١٩١٣ م.

(١٨٦٠ م - ١٢٧٧ هـ) أي قبل مولد قاسم أمين بنحو أربع سنوات .

ولكننا لن نعثر على الحقيقة في قضية الريادة لهذه الدعوة إذا نحن وقفنا عند هذه الحدود التي يرسمها أصحاب هذا الخلاف .. ذلك أن هناك وقائع أخرى نراها هامة وضرورية لمن يريد الوصول إلى كلمة سواء في هذا الموضوع .

فأولاً : كانت مصر ، في ظل الدولة المدنية الحديثة ، التي قاد انشاءها محمد علي أسبق إلى حركة التمدن الحديث بكل مناحيها وأشكالها - ومنها الدعوة لتحرير المرأة - من المجتمع العثماني ، ولقد بدأت انعكاسات التجربة المصرية تعمل عملها وتحدث تأثيراتها في الدولة العثمانية ذاتها ، حتى قيل : « ان النهضة العثمانية ، بكل فروعها ، مسبوقة في مصر ، ومقتبسة عنها[1] ... » . فالريادة هنا لمصر لا للأتراك العثمانيين .. وذلك إذا أخذنا قضية التمدن الحديث والدخول إلى عصر النهضة والتنوير على وجه الاجمال .

وثانياً : إذا نحن أردنا التأريخ لنشأة المدارس العربية والوطنية التي قامت لتعليم البنات بعض الفنون والعلوم ، وهي تلك التي أنشأها محمد علي للتمريض ، وغيره من

---

(١) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة، ص ٣٥٢، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٥ .

الفنـون . . وهو تـاريخ سـابق على صـدور (الجوائب) في ستينات ذلك القرن بثلاثة عقود تقريباً .

وإذا نحن نقبنا في الفكر العصري الذي شهدته مصر في ظل تلك الدولة الحديثة ومجتمعها ، وجـدنا الـدعوة ، غـير المباشرة ، إلى تحرير المـرأة وتعليمها معلنـة في كتاب رفـاعة الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م) « تخليص الابريز في تلخيص باريز » وتاريخ تأليفه سابق على اكتوبر سنة ١٨٣٠ م ، وطبعته الأولى قد صدرت سنة ١٨٣٤ م [١] وهو قد ترجم إلى التركية في ذلك التاريخ .

كما نجد الدعوة إلى تقريب الفروق بين حق المرأة وحق الرجل في التعليم تظهر في مداولات (لجنة تنظيم التعليم) التي كان الطهطاوي عضواً بها ، فتقترح هذه اللجنة في سنة ١٨٣٦ م « العمل لتعليم البنات في مصـر » تعليماً يتخـطى حدود الضرورات العملية التي كانت تحكم مناهج المدارس التي كانت قائمة للبنات في ذلك التاريخ .

وهكذا تسبق مصر ويسبق المصريون الأتراك في الدعوة إلى تعليم المـرأة وتغيـير أوضـاعهـا . . ويسبق الـطهـطاوي الشدياق ، وغيره ، في ارتياد هذا الميدان . . ثم يأتي كتابه

---

(١) «الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي »دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة، جـ ١ ص ٧٨، طبعة بيروت، سنة ١٩٧٣ .

(المرشد الأمين لتربية البنات والبنين) الذي كتبه في بداية السبعينات بتكليف من (ديوان المدارس) كي يدرس في مدارس البنات . . يأتي حاوياً لكثير من الآراء ووجهات النظر التي يمثل مجموعها أول بناء فكري شبه متكامل يكرسه مفكر عربي لقضية تحرير المرأة في عصرنا الحديث .

تلك هي قضية الريادة في هذا الميدان . . فهي لمصر محمد علي ، وليست لتركيا آل عثمان . . وهي للطهطاوي ، وليست لأحمد فارس الشدياق أو قاسم أمين .

* * *

ولكن . . تبقى لقاسم أمين ، في هذا الميدان ، ميزة ينفرد بها عن كل من عداه من المفكرين والمصلحين الذين أسهموا بسهم في هذا السبيل . . فكل من عدا قاسم أمين كان حديثهم عن تحرير المرأة والنهوض بها أمراً من أمور كثيرة تناولوها فيما أبدعوا من أفكار وآثار . . أما قاسم أمين فهو الوحيد من بين كل هؤلاء الذي وهب كل جهوده وجميع آثاره ـ تقريباً ـ لهذه الدعوة ، حتى لقد ذهب علماً عليها ورمزاً لها ، تتداعى قضاياها وحجج أصحابها إذا ذكر اسمه في أي وقت وأي مجال .

بل ان كل الجوانب الأخرى التي مثلت وتمثل القسمات المتعددة لفكر قاسم أمين وموقفه الاصلاحي ، وهي الجوانب

التي ستكشف عنها دراستنا هذه للمرة الأولى ، إنما جاءت من خلال دراسته لهذه القضية ودعوته قومه لهذا الأمر الخطير .

- فمنهجه الاجتماعي في البحث . . ومذهبه في رؤ ية التاريخ وتطور المجتمعات .
- وانتماؤه الاجتماعي والفكري . . والمجتمع الذي بشر به .
- وموقفه من « التمدن الاسلامي » وفهمه لهذا التمدن .
- ودعوته في الاصلاح الاجتماعي . . والتربوي . .
- وموقفه من تبلور الشخصية المصرية الحديثة . . ومزاجه المعتدل في الوطنية . . وتقييمه لتجربة مصر الحديثة . . .

كل هذه القسمات ، وغيرها ، في فكر قاسم أمين ومذهبه الاصلاحي ، قد تبدت من خلال حديثه عن القضية الأساسية التي نذر نفسه لها . . وهي قضية المرأة الشرقية والمسلمة ، والعمل على الانتقال بها من ظلمات جاهلية العصور الوسطى إلى أنوار تحضر العصر الحديث .

فإذا لم تكن ريادته ريادة سبق . . وإذا لم يكن سبقه سبق زمان وتاريخ . . فإن له الريادة في تكريس كل جهده الفكري لهذه القضية قبل غيرها ، بل ودون غيرها ـ تقريباً ـ من قضايا الاصلاح .

وإذا كانت هذه الدراسة التي نقدمها عن قاسم أمين ستضع ، من خلال فصولها القادمة ، فكر القارىء والباحث

على حقائق وقسمات في فكره لم يلتفت إليها كثير من دارسيه، فإن الفضل في ذلك ـ بعد المنهج العلمي الذي نتناول به دراسة فكره ـ يعود إلى مجيء هذه الدراسة ثمرة للنظرة الشاملة لأعماله الفكرية الكاملة، خصوصاً وأنها الدراسة الأولى التي تهتم كثيراً برصد تطوره الفكري. بعد أن يسرت لنا تلك المهمة ترجمة كتابه «المصريون» الذي رد به على الدوق الفرنسي «داركور». والذي كان أول كتاب يؤلفه قاسم أمين.

لقد ظل هذا الكتاب الهام بعيداً عن قراء العربية منذ صدوره بالفرنسية سنة ١٨٩٤ م حتى تاريخ تقديمنا له بالعربية، ضمن أعماله الكاملة سنة ١٩٧٦ م .. ومن هنا كان الجديد الذي تقدمه هذه الدراسة عن فكر قاسم أمين، مرتبطاً ونابعاً من الجديد الذي قدمته طبعتنا المحققة لأعماله الكاملة منذ خمس سنوات .

فاليوم قد أتيحت لقراء العربية نصوص قاسم أمين وأعماله الكاملة للمرة الأولى .

واليوم قد أتيحت للغة العربية فرصة امتلاك نص كتابه « المصريون » لأول مرة .

واليوم تتاح لقراء العربية امكانية رصد جوانب فكره وقسمات مذهبه الاصلاحي .

وهي الأمور التي نرجو أن يكون قد حالفنا في إنجازها التوفيق .

الدكتور
محمد عمارة

بطاقة حياة

[إن اللذة التي تجعل للحياة قيمة ، ليست حيازة الذهب ، ولا شرف النسب ، ولا علو المنصب ، ولا شيئاً من الأشياء التي يجري وراءها الناس عادة .. وإنما هي أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم ...] .

قاسم أمين

في هذه « البطاقة » نكثف المعالم الهامة والبارزة ، في حياة قاسم أمين ، وذلك حتى تكون سطورها « شريطاً » يعرض ، في إيجاز شديد ، حقائق هذه الحياة وتطورات صاحبها في حياته الخاصة والعامة . . فهي ليست « ترجمة » ـ بالمعنى المتعارف عليه ـ لحياته ، وإنما هي « بطاقة » لهذه الحياة تكثف معالمها البارزة في عدد من النقاط :

ـ ١ ـ

* ولد قاسم أمين لأب تركي عثماني وأم مصرية من صعيد مصر . . فوالده محمد بك أمين كان قبل مجيئه إلى مصر واستقراره بها ، الوالي التركي على اقليم « كردستان » إحدى ولايات الدولة العثمانية في ذلك التاريخ .

وعندما ثارت « كردستان » ضد الدولة العثمانية ، وأعلنت استقلالها وانفصالها عن الآستانة ، كان واليها محمد بك أمين في الآستانة ، فظل بها ، حتى منحته الدولة ، عوضاً عن إمارته ، اقطاعات في مصر ، باقليم « البحيرة » ، قرب

مدينة « دمنهور » ، فنشأت علاقته بمصر ، وقرر الاقامة بها ، وكان ذلك في بداية حكم الخديوي اسماعيل .

* وفي مصر تزوج محمد بك أمين إحدى بنات أسرة مصرية من صعيد مصر ، هي إبنة أحمد بك خطاب ، شقيق إبراهيم خطاب باشا .

* وفي مصر كذلك التحق محمد بك أمين بالجيش المصري على عهد الخديوي اسماعيل ، وفيه ارتقى حتى بلغ رتبة « اميرالاي » وشغل مركز قائد سلاح « المرابطين » .

* وهناك من يرجح أن تاريخ ميلاد قاسم أمين - وهو الابن الأكبر لهذه الأسرة - كان في أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ م (٥) . وهناك خلاف في محل ميلاده .. هل هو الاسكندرية ؟ ام ضاحية « طرة » القريبة من القاهرة ؟ .. ولعل الأم كانت تقيم بالاسكندرية ، على حين كان عمل الأب في « طرة » ، ومن هنا نشأت أسباب اللبس والاختلاف .

* وفي الاسكندرية قضى قاسم أمين أولى سنواته في

---

(٥) يخطىء كل من : سركيس في « معجم المطبوعات العربية والمعربة » ومحمد رضا كحالة في « معجم المؤلفين » و « الموسوعة العربية الميسرة » في تحديد سنة ميلاده ، فيجعلونها سنة ١٨٦٥ م .. ولكن الزركلي في « الاعلام » ، وكذلك كتاب ترجمته واصدقاؤه ومعاصروه يجعلونها سنة ١٨٦٣ م .

التعليم . . فلقد دخل مدرسة « رأس التين » الابتدائية ، وكانت يومئذ مدرسة أبناء الأرستقراطية من ابناء الأتراك والشراكسة والأثرياء .

وبعد حصول قاسم على شهادة الابتدائية انتقلت الأسرة من الاسكندرية ، واستقر بها المقام في القاهرة ، وسكنت في حي الأرستقراطية القاهرية يومئذ ، حي « الحلمية » . . والتحق قاسم بالمدرسة التجهيزية ـ الخديوية ـ والمدارس التجهيزية في ذلك العصر تقابل المدارس الثانوية هذه الأيام . . وفي هذه المدرسة دخل قاسم أمين القسم الفرنسي .

* وبعد المرحلة التجهيزية التحق قاسم بمدرسة الحقوق والادارة ـ وهي مدرسة عليا كانت البديل لكلية الحقوق في غياب الجامعات ـ ومنها حصل على « الليسانس » ، وهو في العشرين من عمره ، سنة ١٨٨١ م . . وكان أول خريجيها في ذلك العام .

* وكان قاسم أحد طلاب الحقوق الذين اقتربوا من حلقة جمال الدين الأفغاني ومدرسته الفكرية التي ازدهرت بمصر في ذلك التاريخ .

ـ ٢ ـ

* اتجه قاسم أمين ، بعد تخرجه وحصوله على

الليسانس ، إلى العمل بالمحاماة . . وكانت لوالده صلات وثيقة مع المحامي الكبير مصطفى فهمي باشا ـ الذي تولى فيما بعد رئاسة الوزارة في ظل الاحتلال الانجليزي لمصر ـ فالتحق قاسم بالعمل في مكتب مصطفى فهمي للمحاماة .

* ولم تطل مدة عمل قاسم بمكتب مصطفى فهمي باشا للمحاماة . . ففي نفس العام ـ ١٨٨١ م ـ سافر في بعثة دراسية إلى فرنسا ، وهناك انتظم في جامعة « مونبلييه » . . وبعد دراسة استمرت فيها أربع سنوات أنهى دراسته القانونية بتفوق في سنة ١٨٨٥ م .

* وأثناء مقام قاسم أمين بباريس ، حدثت بمصر أحداث الثورة العرابية التي قادها وشارك فيها عديد من تلامذة جمال الدين الأفغاني ، والحزب الوطني الذي كونه بمصر سراً في أواخر السبعينات . . ثم انتهت هذه الثورة بالتدخل الانجليزي المسلح ، واحتلال انجلترا لمصر ، ومحاكمة زعماء الثورة ونفيهم من البلاد .

* ثم استقر المقام بالأفغاني ـ بعد فك اقامته الجبرية بالهند ـ وكذلك بمحمد عبده ـ بعد نفيه من مصر ـ إستقر بهما المقام بباريس منذ سنة ١٨٨٣ م ، وهناك أصدرا مجلة « العروة الوثقى » لسان حال لتنظيم « العروة الوثقى » السري الذي انتشرت فروعه من مصر إلى الهند ، والذي قام أساساً لمناهضة

الـزحف الانجليزي عـلى الشرق ، ولمنـاوأة إحتلالهم مصـر بالذات .

وفي تلك الفترة عادت صلات قاسـم أمين مع الأفغاني ومدرسته ، فكان « المترجم » الخاص بالإمام محمد عبـده في باريس .

* وفي فرنسا قرأ قاسم لمفكري أوروبا الكبار ، ومن بين الذين قرأهم : نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) وداروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) وماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣ م) .

وفي فـرنسا كـذلك حـاول قاسم أمـين الاقتراب من المجتمـع الفرنسي وإقـامة الصـلات الوثيقـة مع نمط حيـاة الفرنسيين الاجتماعي . . غير أن طبيعته الشرقية الخجولة ، وسمة الانعزالية التي ميزت شخصيته لم تمكنه من الـذهاب بعيداً في هذا المضمار .

فهنـاك صـداقـة ، بـل وحب ، قـد نمـا بينـه وبـين « سلافا » ، تلك الفتاة الفرنسية التي زاملته في الدراسة بجامعة مـونبلييه . . ولكن هـذه الصـداقـة وذلـك الحب قـد ظـل « رومانسياً » ، وكانت أهم آثاره تلك المشاعر النبيلة التي بدأت تتولد في نفس قـاسم نحو المـرأة منذ ذلـك الحين ، وتلك الأحلام الوردية التي بدأت وظلت تراوده عن قيام المرأة بدور الوحي والحافز والمساعد في حياة الرجل ، ومن ثم المجتمع ، بدلاً من بقائها قيداً يشد خطو الرجل والأمة إلى الوراء . . لقد

بدأ يحلم بالانسانة التي تجمع بين جمال الأنثى وعقل الرجل ؟!

كما وقف هذا الخجل الشرقي وتلك المحافظة والانعزالية ، اللذين تحلت بهما طبيعة قاسم أمين ، حائلاً بينه وبين الانسجام مع مرح ذلك المجتمع وما كان لرجاله بنسائه من علاقات لم تكن مستساغة عند أغلب الشرقيين الذين ذهبوا إلى باريس في ذلك التاريخ .

فقاسم ذهب إلى باريس بعد رحلة الطهطاوي إليها بخمسة وخمسين عاماً ، والثاني كان شيخاً أزهرياً ، وواعظاً بالجيش ، وإمام الدين للبعثة الدراسية التي ذهبت تتعلم هناك . . ومع فارق الزمن وفارق الثقافة والبيئة . . فقد كان الطهطاوي أكثر تقبلاً وتفهماً لعادات الفرنسيين الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية ، وأقل محافظة في تقييمه لحفلاتهم واختلاط رجالهم بنسائهم من قاسم أمين .

فالطهطاوي ينفي أن يكون سفور المرأة الفرنسية مفضياً ، بالتبعية والحتم ، إلى التبذل والخروج عن مقتضيات العفاف . . فالفرنسيون يحافظون ـ مثلنا ـ على « العرض » ويسمونه شرفاً ، بل « ويقسمون به عند المهمات ، وإذا عاهدوا عليه ، وفوا بعهودهم ! » . . « هم مثل العرب في هذا الأمر . . . » أما حدوث « اللخبطة » ـ كما يقول ـ بالنسبة لعفة النساء ، فليس مبعثه السفور أو الاختلاط ، بل ولا شيوع العشق في المجتمع الفرنسي ، لأن منشأ « العفة » أو

« اللخبطة » إنما يعود إلى « التربية الجيدة أو الخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك في المحبة ، والالتئام بين الزوجين » . . ومن ثم فإن الفرنسيين « تقل فيهم دناءة النفس » فيما يتعلق بعلاقات الرجال مع النساء ! [٦] .

تلك كانت انطباعات الطهطاوي عن هذا الجانب من جوانب المجتمع الفرنسي .

أما قاسم أمين فانه كان أكثر تحفظاً في التقييم لهذا الجانب من حياة الفرنسيين ، فهو يكتب عنه فيقول : « . . . يضم المجتمع الأوروبي الرجال والنساء دائماً ، فيسهل الاتصال بينهم ، وتنشأ فيما بينهم علاقات ألفة وصداقة وحب ، وهذا الاختلاط بين الجنسين في الاجتماعات يسبغ عليها عذوبة ورقة ، فالسحر الذي تشيعه المرأة في كل مكان توجد فيه ، شيء ممتع ونفاذ كعطر الزهور . وفي مثل هذه الاجتماعات ينعم المرء دائماً بالمرح ، وغالباً ما يتودد للغير ، ويخرج في النهاية مفعم القلب بالرضا ! » .

ثم يستطرد متحدثاً عن تجربته الذاتية مع هذا النمط من الحفلات الباريسية فيقول : « وقد أتيح لي تقييم هذا السحر الفريد ، وكان شأني شأن الآخرين في الاحساس بقدره ، وخاصة في وجود امرأة تجمع حصافة الفكر إلى جمال الجسد .

---

(٦) «الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي»، جـ ١ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

وقد رمت بي طبيعتي الخجولة بين الاضطراب والحيرة أكثر من مرة ، غير أن هذا لم يقلل من حبي لهذه اللقاءات الشيقة التي يهتم فيهـا الجميـع بخلق جـو البهجـة والاستمتـاع به ! . . . » [7] .

* وفي صيف سنة ١٨٨٥ م عاد قاسم أمين إلى القاهرة ، وذلك بعد أن عمل هناك مع أستاذه « لـرنود » ـ عقب التخرج ـ عدة شهور .

- ٣ -

* ويوم احتفال قاسم أمين بعيد ميلاده الثاني والعشرين ـ أول ديسمبر سنة ١٨٨٥ م ـ صدر قرار تعيينه بالقضاء ، في النيابة المختلطة . . فبدأ طريقه لتحقيق طموحه ، وخاصة ما يتعلق منه بإثبات جدارة المصري ونديته للأوروبي في تولي الوظائف العامة والنهوض بأعبائها . . وبوجه أخص في حقل مؤسسة قضائية وطنية تكون موضع ثقة المقيمين بمصر ، أجانب ومصريين على حد سواء .

* وبعد شهور من عودة قاسم إلى أرض الوطن توفي والده محمد بك أمين .

---

(٧) «الأعمال الكاملة لقاسم أمين». دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة، جـ ١، ص ٢٩٢. طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م.

* وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٧ م نقل من النيابة المختلطة إلى قسم قضايا الحكومة .

* وفي يونيو سنة ١٨٨٩ م رقي إلى منصب رئيس نيابة « بني سويف » ، بصعيد مصر .. وهناك بدأ يطبق مفاهيمه وآراءه في فلسفة العقاب ودوره في الاصلاح الاجتماعي .. فلقد وجد الكثيرين من الذين وضعتهم الادارة الحكومية ، ظلماً ، في سجن « بني سويف » ففك قيود أغلبهم وأطلق سراحهم ! .

* وفي سنة ١٨٩١ م انتقل رئيساً لنيابة « طنطا » .. حيث واجهته هناك حادثة هامة وقف ازاءها يبحث عن خيار بين ما يفرضه عليه القانون وما تدعوه إليه الوطنية والوفاء لمدرسة الأفغاني التي انتسب إلى فكرها ومنح رجالها الحب والاعجاب منذ عهد صباه ..

فلقد وقع عبدالله نديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦ م) - أبرز زعماء الثورة العرابية وأصلب قادتها - في قبضة الشرطة ، وذلك بعد اختفاء أسطوري دام تسع سنوات .. وجيء به إلى رئيس النيابة قاسم أمين ؟! .. فأكرم لقاءه ، وأعطاه مالاً من عنده ، وهيأ له في محبسه أقصى ما يمكن من ظروف الرعاية والراحة .. ثم قرر أن يقوم بالسعي لدى المسؤولين في العاصمة كي يفرجوا عنه ويطلقوا سراحه ، فسافر إلى القاهرة يلتمس له العفو .. وبعد حملة صحفية ، تبنت هذا المطلب ،

قررت الوزارة العفو عن عبدالله نديم مع إبعاده إلى الشام في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩١ م ، بعد منحه مبلغ مائة وخمسين جنيهاً ! .

ونفس الصنيع كان يكرره قاسم أمين مع الطلبة المقبوض عليهم في المظاهرات ! بل كان يخفي بعضهم حتى يستصدر لهم العفو من السلطات !

* وفي ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٢ م عين قاسم أمين نائب قاض في محكمة الاستئناف . . ثم رقي بعد عامين من ذلك التاريخ إلى منصب مستشار ، وكان يومئذ في الحادية والثلاثين من عمره .

* ولقد عرفت عنه طوال مدة عمله بالقضاء دعوته إلى جعل القضاء المصري والمحاكم الأهلية الوطنية جهة التقاضي والمحاكمة بالنسبة للأجانب الذين يعيشون بمصر ـ باستثناء أحوالهم الشخصية ـ وذلك حتى تزول الازدواجية القضائية التي فرضتها على مصر امتيازات الأجانب ونفوذ الاستعمار .

* وخارج نطاق العمل القضائي امتد نشاط قاسم أمين . . فكتب في صحيفة « المؤيد » عدداً من المقالات دون توقيع . . وأصدر كتابه « المصريون » ـ بالفرنسية ـ سنة ١٨٩٤ م . . يرد به هجوم الدوق الفرنسي « دراكور » على مصر والمصريين . . كما أصدر « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م ، و « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م .

كذلك شارك في نشاط « الجمعية الخيرية الاسلامية » ، وكانت تنشىء المدارس للفقراء ، وتنهض بضروب من الخدمة والمساعدات للمعوزين والمنكوبين .

وفي ١٢ اكتوبر سنة ١٩٠٦ م تولى سكرتارية الاجتماع الذي عقد بمنزل سعد زغلول باشا ، والذي صدر عنه البيان الشهير الموجه للأمة يدعوها للاسهام في انشاء الجامعة الأهلية المصرية . . وعندما تخلى سعد زغلول عن رئاسة اللجنة التي نيط بها أمر الدعوة لانشاء الجامعة ، بعد تعيينه ناظراً - (وزيراً) للمعارف ، تولى رئاسة اللجنة بدلاً منه قاسم أمين . . وكانت آخر أعماله العامة ذلك الخطاب الذي ألقاه « بالمنوفية » ، بمنزل حسن زايد ، عن الجامعة والتعليم الجامعي المرجو لمصر والمصريين . . فلقد ألقى خطابه في ١٥ ابريل سنة ١٩٠٨ م ، وفارق الحياة فجأة بعد ذلك التاريخ بأسبوع ، أي في ليلة ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٨ م . . وكانت مصر تستعد للاحتفال بافتتاح الجامعة التي نهض في سبيل قيامها بدور عظيم .

- ٤ -

* أما منزل قاسم أمين وحياته الأسرية فلقد كانا متسقين مع مزاجه الهادىء وروحه الفنانة واحساسه الرقيق . . فهو قد تزوج في سنة ١٨٩٤ م من زينب ، ابنة أمير البحر التركي أمين توفيق . . وكان صديقاً لوالد قاسم أمين . . وكانت قد

أشرفت على تربية زوجته هذه ، في طفولتها وصباها ، مربية انجليزية .. وكان قاسم يقضي مع زوجته ويخصها من وقته بساعتين يومياً ، وبشكل منتظم من الخامسة إلى السابعة مساء !

ولقد أنجب بنتيه : زينب ، التي أحضر لها مربية فرنسية .. وجلسن ، التي أحضر لها مربية انجليزية .

* أما مكتبته فكانت تشغل من منزله ثلاث غرف .. ومع كتبه كان يقضي ، يومياً وبانتظام ثلاث ساعات ، من السابعة حتى العاشرة مساء !

* أما إجازته الصيفية فكان يقضيها مع أسرته بتركيا ، حيث كان لوالد زوجته منزل هناك .

* * *

هكذا كانت حياة قاسم أمين ، وكانت شخصيته .. فنان وأديب نحا نحو الاصلاح الاجتماعي .. ومفكر يحترم رأيه ، ويدافع عنه بإصرار ، ويتصدى لأعتى الموجات وأعنف الأعاصير التي سببها له موقفه من قضية المرأة ودعوته إلى تحريرها ـ بدءاً من تحريم دخوله إلى قصر الخديوي بعد إصدار « تحرير المرأة » ، إلى النقد والتهجم والسباب والاتهامات التي كيلت له من أغلب قطاعات الفكر ودوائر الثقافة وجمهرة الكتاب .. إلى سعي فئات وأفراد من العامة والبلهاء

والمتعصبين إلى إزعاج حياته الأسرية الهادئة ، ظناً منهم أن دعوته إلى تحرير المرأة تبيح لهم اقتحام منزله والطلب إلى زوجته مخالطة من يريد الاختلاط ؟!

ومع كل ذلك ، ومثله كثير ، عاش قاسم عمره القصير ـ بمقاييس السنوات ـ بروح الفنان ، فأعطاه عمقاً ومنحه أبعاداً تخطت به حدود الزمن والسنوات .

وكما يقول الدكتور محمد حسين هيكل : لقد كانت « روح قاسم أمين روح أديب .. كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة ، التي لا تعرف الطمأنينة ، ولا تستريح إلى السكون ، وكانت الروح المشوقة التي لا تعرف الانزواء في ركن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنهها ما في حياة الكون وحركته من نشاط وجمال . بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحياً وإلهاماً أكثر مما تؤدي المباحث الجافة منطقاً وجدلاً . وكانت هذه المناظر تذكي شعوره الحساس بجمال الحياة ، وتدعوه إلى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع ، وذلك لا يؤتاه إلا رجل فن جميل لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معاني هذه النعم ! »[٨] .

هكذا كان قاسم أمين ـ يرحمه الله ـ .

---

(٨) «تراجم مصرية وغربية»، ص ١٥٣ .

قسمات المنهج الاجتماعي

[إن أهم عامل له أثر في حال الأمة هـو: حـالتها الاقتصـاديـة.. وهي لا تتغير بـإرادة شخص أو مائة شخص، أو إصدار قانون أو مائة قانون.. بل بتغيير الأسباب التي أوجدتها..

ولقـد نظم الاسـلام توزيـع الثروة، وأعلن اشتراك الفقراء في ملكية أموال الأغنياء، فحل المشكلة الاجتماعية بنوع فريـد من الجماعيـة، واشتراكية سامية سبقت أكثر النظم السيـاسية ثورية بأكثر من ألف عام.

إن النوع الانساني، في كل مكان، هو نفسه، بـأخـطائه ومـواطن ضعفـه، وأيضـاً بعـظمتـه وزهوه.. والحركة المستمرة إلى جهة الترقي هي قانون الحياة الانسانية.. ولن يقف ماضينا ولا حاضرنا حائـلاً بيننا وبين التقدم حسب هـذا القانون الذي يسود الكون كله...].

قاسم أمين

من المعالم الهامة والايجابية في فكر قاسم أمين وآثاره أن روح الفنان والأديب التي ملكت عليه كيانه ، وحددت رؤيته لكثير من القضايا والأشياء لم تطغ عنده على قوانين المنهج الاجتماعي الذي التزمه إلى حد كبير في درس وعلاج قضايا الاصلاح التي عرض لها . . بل اننا نستطيع أن نقول : انه كان من أبرز كتابنا ومصلحينا الذين وعوا بدور المنهج الاجتماعي في البحث وأهميته في قيادة الباحث والمفكر إلى أسلم النتائج وأصدق المقولات .

فهو يرفض مسلك أولئك الباحثين والمصلحين الذين يكتفون من البضاعة بما هو نظري ومنمق وبراق ، بصرف النظر عن الواقع الذي يطبقون إصلاحاتهم فيه . . وينبه إلى عقم ذلك المذهب السهل الميسور لكل من يحسن التخطيط على الأوراق ، ثم يدعو إلى أن يكون الفكر وخطط الاصلاح مدروسة في ضوء إمكانات الواقع الذي نرجو له التغيير والتطوير . . يقول :

« نحن نفهم أن رجلاً يعيش في عالم الخيال ، يكتب في مكتبته على ورقة : ان ليس على النساء إلا أن يقرن في بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال !

نحن نفهم ذلك ، لأن الورق يتحمل كل شيء !

وإنما يجد الصعوبة رجل اعتاد أن يحل النظريات ويختبرها بقياسها إلى الواقع ، فإنه إذا أراد مثلاً أن يحصل لنفسه رأياً في : ما هي حقوق النساء التي نحن بصددها ؟ يجب عليه :

أولاً : أن يسوق نظره إلى الوقائع التي تمر أمامه ، أعني أن يطبق نظريته على الوقائع ويتصورها في ذهنه منفذة معمولاً بها في مدينة ثم في إقليم . . ذلك عمل ليس بالسهل ، لأنه يحتاج إلى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة .

فإذا توفر له ذلك كله لم يتيسر له أن يحكم في المسألة حكماً قاطعاً ، لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية ، فلا تكون نتائجها إلا تقريبية ، لذلك تراه دائماً على طريق البحث ، لا يركن إلى ما وصل إليه جهده إلا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت ، ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل » [٩] .

---

(٩) «الأعمال الكاملة لقاسم أمين» جـ ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

فهو في هذا النص الهام يحدد متطلبات المنهج الاجتماعي في البحث والدراسة . .

١ ـ فلا بد من دراسة الواقع ، قبل التخطيط .

٢ ـ ولا بد من أن يكون الواقع ماثلاً في الذهن ونحن نضع التخطيط ، ماثلاً بمعطياته القائمة ، وماثلاً متخيلاً في حال تطبيق التخطيط عليه وتنفيذه فيه .

٣ ـ ولا بد وأن تكون الدراسة والتصور شاملة ومحيطاً بالواقع ككل ، وبدءاً من الجزء وانتهاء بالكل .

٤ ـ ولا بد من اختبار مدى صدق المقدمات ، لأنها ظنية وفروض لا تثمر المطلق والنهائي ، بل النسبي والتقريبي .

٥ ـ ولذلك كله فلا بد من أن يكون البحث عملاً مستمراً ، كي نضع في اعتبارنا المعطيات الجديدة التي تثمرها دراسة الواقع بعد التطبيق ، وهي المعطيات التي تسهم في اختبار صدق المقدمات ، وتحدث التعديلات في النتائج التي يصل إليها الباحثون . . فنسبة المعرفة هنا تتطلب من الباحث أن « لا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل ! » .

وقاسم أمين لم يحدد هذا المنهج لأنه نقله عن الفكر

الأوروبي الذي درسه واستفاد منه . . لم يقف عند حدود الفهم والنقل ، بل لقد طبق هذا المنهج في بحثه لكل القضايا الاصلاحية التي عرض لها .

فهو عندما قرأ هجوم « دوق داركور » على مصر والمصريين ، إنفعل غضباً حتى أصابته الحمى ! ولم يجد علاجاً لمرضه إلا أن يرد هجوم الدوق . . ولكنه خلع انفعالاته ، بل وجاهد للحد من تأثير روابطه القومية والوطنية على فكره وتقييمه لواقع مصر قدر الامكان ـ وإن كان لم ينجح . . وما كان له ولا لغيره أن ينجح في طلب ما هو مستحيل ! لكنه حاول وبلغ قدراً من النجاح حققته محاولته الواعية هذه . . وعبر عن منهجه الذي اهتم بدراسة الواقع ، رغم الانفعال وحساسيات الموضوع ، فقال : « لقد أطلت التأمل في أبناء وطني ، بل لقد بذلت جهداً أكبر مما يبذله الأجنبي في دراستهم والتعرف عليهم ، وأعتقد انني نجحت في أن أكتشف أعماق وجدانهم »[١٠] .

ووعي قاسم أمين بضرورة دراسة الواقع وتحكيم معطياته في التخطيط والتنظير هو الذي جعله يفرق بين الأبحاث الجادة التي تستحق الاحترام وبين الانطباعات التي يكتبها عن مصر

---

(١٠) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٤٢.

أولئك « السياح » العابرون للسبيل ، والباحثون - إلى جانب المتعة - عن القصص الغريب والنبأ العجيب ، بصرف النظر عن الحقيقة والواقع في المجتمع الذي عنه يكتبون . . فيصف هذا اللون من التأليف بقوله : « انني أعرف ، بخبرتي ، ذلك المنهج الذي يتبعه الأوروبيون في تأليف كتبهم . فهم يعتمدون على ما يقدمه لهم التراجمة من مواد ، وكلما كانت هذه المواد رهيبة شديدة الغرابة ، كلما غلا ثمنها ، دون أن ننسى ما تقدمه هذه المواد من ضمان لنجاح الكتاب ! »(١١) .

وهو في نقده لكتاب « دوق داركور » عن مصر والمصريين يصنف هذا الهجوم في هذا اللون من ألوان التأليف ، فيقول : « إنني أفهم تمام الفهم دوق داركور ، لقد أمضى الشتاء في رحلة لم تنقصها المتعة ! وطالع غدداً من قصص كتاب الرحلات ، مهتماً أكثر بمن أساءوا في كتاباتهم إلى الاسلام - الذي يكرهه من أعماق قلبه - ورأى من شرفة فندق « نيو أوتيل » ، وعبر نافذة السيارة التي كان يتجول بها ، مجموعات من السكان الفقراء ذوي المظهر البسيط ، وبهذه الطريقة ألف كتابه ؟! »(١٢) .

فهذا المنهج الذي يهمل دراسة الواقع هو منهج

---

(١١) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٥٤ .

(١٢) المصدر السابق، جـ ١ ، ص ٢٥٥ .

مرفوض ، ونتائجه مرفوضة ، من قاسم أمين .

وفي الأفكار الاصلاحية التي تمنى قاسم أمين تطبيقها في عالم الأدب العربي نطالع كذلك إيمانه بهذا المنهج الاجتماعي ، مطبقاً على هذا الحقل .. فهو يدعو إلى العمل على إعادة المكانة المفقودة إلى هذا الأدب .. مكانته القديمة التي كانت له عصر ازدهاره وازدهار حضارة أهله ، وذلك بواسطة إصلاحين أساسيين هما :

١ ـ أن يصبح هذا الأدب انعكاساً للتغيرات التي يشهدها الواقع المعاصر .

٢ ـ وأن يطوع هذا الأدب لما جد في المجتمعات الجديدة من عادات تعبيرية لم يعرفها الأسلاف ، لا بد وأن تفرض أساليب جديدة للمعالجات .

وهو يعبر عن أفكاره تلك فيقول : « ان الأمر في حاجة إلى عبقري يستطيع بنشاطه ومواهبه أن يعيد للأدب مكانته التي كانت له قديماً في المجتمعات الاسلامية ، فيجعله يعكس هذه التغيرات التي ينبض بها وضعنا الحالي ، ويطوعه لعادات جديدة »[١٣] .

---

(١٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٣٠.

بل ان اهتمام قاسم أمين ـ المنهجي ـ بالواقع لا يقف عند هذه الحدود ، فهو يدعو ـ مثلاً في ميدان التربية ـ لأن نتخطى حدود الفهم النظري للواقع ، ونمارس القيم ممارسة عملية . . يدعو إلى معرفة تكون ثمرة للخبرة والممارسة ، ولا يكتفي أصحابها بالتحصيل والاستيعاب . . فيتحدث عن هذه القضية ، من خلال نقده للواقع السائد في ميدان التربية عند المصريين فيقول :

« ومن الأسف أن المصري لا يزال يظن أن تربية الطفل عبارة عن وضعه في المدرسة ، وأنه متى علم ولده ما كان يجهله من العلوم فقد أحسن تربيته وقام بما يجب عليه ، مع أن التعليم هو في الحقيقة أقل فروع التربية شأناً وفائدة .

نعم . . انه قد يكون من النافع أن الولد يعرف القراءة والكتابة والحساب ويتعلم الجغرافية والتاريخ والهندسة ، والفلسفة إذا شئت ، ولو اني أعتقد أن التعليم النظري لا يفيد الغلام فائدة محسوسة ، خصوصاً إذا كان في السن الذي يتلقى فيه العلوم العالية .

ولكن يجب على الآباء أن يعلموا أن التعليم وحده لا يفيد شيئاً إذا لم يكن مصحوباً بتربية قوية . . وذلك بتعويد الطفل لا على أن يفهم أن هذا الطيب طيباً وذاك الخبيث خبيثاً ، بل على أن يعمل الطيب ما قدر ويجتنب الخبيث ما استطاع لأن إدراك الحسن حسناً والقبيح قبيحاً أمر سهل . .

فالتمييز بين الفضيلة والرذيلة ليس بالشيء المهم في فن التربية ، ولكن كله ينحصر في اكتشاف وإظهار وتنمية جميع الملكات الطيبة المخلوقة فينا ، أو غرسها في نفوسنا ، وتقويتها واحيائها حتى تمسك في النفس بجذورها فلا تستطيع قوة قلعها بعد ذلك أبداً . . والتربية بهذا المعنى لا يمكن أن تكتسب في المدارس والمكاتب والقراءة والحفظ ، بل تجب ممارستها ! » [١٤] .

* * *

ولو أن قسمات المنهج الاجتماعي لدى قاسم أمين وقفت عند هذه الملامح والحدود لكان ذلك كافياً في انتزاع الاعجاب به والاكبار له ، خصوصاً إذا نحن راعينا عصره وظروف مجتمعه ، ولكنه لم يقف بقسمات هذا المنهج عند تلك الحدود ، وذلك لسبب بسيط وعميق ، هو أن ذلك المنهج الاجتماعي ، والذي تحدثنا عنه ، والذي آمن به قاسم أمين وطبقه في دراسته لقضايا الاصلاح التي عرض لها . . ان هذا المنهج كان ثمرة لايمانه العلمي بأن الكون بأسره إنما يخضع لنظام صارم وتحكمه قوانين لا تختلف ثمراتها . . فهناك وحدة في قوانين الكون ونظمه . . وهناك وحدة في قوانين تطور الانسان عبر كل العصور وفي كل البيئات وهناك وحدة في قوانين تطور المجتمعات .

---

(١٤) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢١٠، ٢١١.

وهذه النظرة العلمية تدخل المجتمعات الشرقية في دائرة التطور البشري العام ، وترفض موقف أولئك الذين يريدون استثناء هذه المجتمعات من التأثر بنهضات الآخرين بحجة الزعم بأنها ذات خصوصية تستعصي على قبول القوانين العامة والموحدة لتطور الكون والمجتمع والانسان .

وقاسم أمين لا يطرح هذه القضية كأمر فكري ونظري مجرد ، وإنما ينبه إلى أن وعيها هو أمر ضروري لنا ونحن نعالج كتابة التاريخ وتفسير أحداثه ، وأيضاً ونحن نعالج قضايا الانسان المعاصر وإصلاح عيوب مجتمعاته ، فكما تحكم القوانين العلمية الظواهر الطبيعية كذلك فإن للظواهر التاريخية والاجتماعية والانسانية قوانينها التي تحكمها ، والتي لا بد من وعيها ، لمن يتصدى لهذه الظواهر بالدراسة والعلاج . يقول ، بصدد الحديث عن مهمة المؤرخ والمصلح .. ذلك « أن المؤرخ يشرح أطوار أمة في زمن من عمرها ، بتعريف أخلاقها وعوائدها ونظاماتها وتربيتها ووسائل معيشتها ، وحالتيها الاقتصادية والسياسية ، داخلاً وخارجاً ، وما هي عليه من درجة الأفكار والعلوم والآداب والفنون ، ويبين من خلال ذلك ما طرأ عليها من الحوادث المهمة .. ولا يعتني إلا قليلاً بسرد الحوادث ـ كما يفعله مؤرخونا ـ وبهذه الطريقة صار التاريخ من أهم العلوم التي موضوعها الانسان الاجتماعي » .

هكذا يحدد المنهج الاجتماعي في كتابة التاريخ ..

فليست الحوادث والوقائع هي الأسباب ، بل هي المسببات ، والقاعدة التي تثمر ما نسميه « تاريخاً » هي الأحوال الاقتصادية والسياسية والفكرية والعادات والتقاليد ووسائل المعيشة . . الخ . أما كتابة التاريخ كركام من الأحداث ـ على عادة مؤرخينا ، كما يقول ـ فهو منهج خاطىء يخرج التاريخ عن مكانه الطبيعي كواحد « من أهم العلوم التي موضوعها الانسان الاجتماعي ! » .

وكما يجب ذلك على المؤرخ ، يجب أيضاً على الساسة والمصلحين وكل المشتغلين بالمسائل العامة . . « فكما يفعل المؤرخ في الماضي يفعل الكتاب المشتغلون بالأحوال العمومية في الحال ، فيدرسون زمانهم درساً تاماً ، ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم ، حتى يتبين لهم ما هم عليه بكيفية لا تقبل الشك .

ان هذه الأمور إنما هي العلل التي أنتجت تلك الحالة ، وان تغييرها لا يكون بالصدفة ، وإنما هو بتغيير يحدث في تلك العوامل المؤثرة ، إذ السبب والمسبب دائماً متلازمان ، عقلاً وعادة ، متى وجد أحدهما وجد الآخر حتماً . وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى في العالم كله ، فليس في الكون شيء وجد بلا موجد وسبب ، واضح أو خفي ، معروف الآن أو يكشفه المستقبل » .

وبعد هذا التأكد على أن تطور المجتمعات وتغييرها إنما تحكمه قوانين تتطلب تغيير الأسباب والقواعد المتحكمة إذا شئنا تغيير المسببات والأبنية العلوية والتابعة ـ ينبه قاسم أمين إلى أن خفاء هذا القانون في الظواهر الانسانية لا يعني تخلفه فيها ، لأنه عام ، حتى وإن تميزت هذه الظواهر بأسباب لا تجعله واضحاً وجلياً كما هو حاله في ظواهر الطبيعة .

« ان هذا القانون الإلهي وإن كان لا يظهر بوضوح تام في علوم الهيئة الاجتماعية ، كما هو ظاهر في العلوم الطبيعية :

أولاً : لأن معارفنا المختصة بالمجتمع الانساني هي ، في الحقيقة ، في أول نشأتها ، وعلى حداثة عهدها .

وثانياً : لأن الحادثة الاجتماعية لا تتكون من سبب واحد ، بل يشترك في مقدماتها عدة أسباب متنوعة .

وثالثاً : لأنها تظهر دائماً انها تحت إرادتنا ، وان لنا سلطة في إيجادها وتعديلها .

ولكن يكون من الخطأ الجسيم أن نعتقد أن الجسم الاجتماعي ليس خاضعاً لذلك القانون العام كغيره » .

ثم يستطرد ليؤكد على أن هذه الحقيقة العلمية قد قررها الله في قرآنه ، فيذكر أن آية ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [١٥] هي أساس لذلك القانون ، وبها

(١٥) الرعد: ١١ .

يظهر للقارىء كيف توافقت شريعتنا مع العلم في هذه القضية ، كما نتفق معه دائماً لو كان القائمون بشؤونها رجال أكفاء يخدمونها بجد ويفهمونها باصالة وإدراك (١٦) .

ولقد كان طبيعياً أن يؤمن قاسم أمين بالتطور والتقدم كقانون علمي ، ليس في نطاق الظواهر الطبيعية فقط كما اشتهر عند تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) في ذلك العصر ، بل وفي الظواهر الخاصة بالحياة الانسانية ، ذلك « أن هذا التغير والتحول ، بل الحركة المستمرة إلى جهة الترقي ، هي قانون الحياة الانسانية ، التي خلقها الله ووهبها أعظم وسائل الارتقاء . وبهذا القانون خرج الانسان من المعيشة البهيمية ، التي لا يزال عليها اخواننا المتوحشون من سكان أفريقيا وأمريكا ، ممن وصفهم العلماء بأنهم قردة متمدنة عندما شاهدوا أن المسافة بينهم وبين الحيوانات البهم أقل من المسافة التي بينهم وبين أناسي أمة متمدنة ! » (١٧) .

ولقد استفاد قاسم أمين من إيمانه بقانون التطور ، ووحدته وفاعليته الأزلية الأبدية ، فاستخدم حقائقه أسلحة في الصراع ضد فكرية الغرب الاستعماري الذي حاول ، في سبيل السيطرة علينا والاستغلال لنا ، أن يوهمنا أن قانون

---

(١٦) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٠٩ .

(١٧) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٠٩ .

التطور والتقدم والارتقاء ، في المجتمعات ، إنما مجال صلاحياته وصلاحه هو المجتمعات الغربية المتقدمة ، أما نحن الشرقيين فإننا ومجتمعاتنا خارجون عن ميدان تطبيق هذا القانون ؟!..

رد قاسم أمين هذه الفرية عندما تحدث عن « ان تاريخ تأسيس الدول في العالم موضوع تأملات متصلة ، وهو يؤكد حقاً ان النوع الانساني ، في كل مكان ، هو نفسه ، بأخطائه ومواطن ضعفه وبؤسه ، وأيضاً بعظمته وزهوه ، والقانون الأبدي الذي يحول المادة يحول أيضاً البشر والأنظمة ، ولا تستطيع قوة مقاومة هذا القانون الذي لا مهرب منه ، والذي يحكم حركة التقدم البشري . والانسانية تعبر عن نفسها في كل مكان بنفس الطريقة ، وتتبع نفس المسيرة .

وقد بدأت الشعوب حياتها بالحرية ، وستنتهي إلى الحرية . غير أنها فيما بين هاتين الفترتين مقضي عليها أن تعاني محنة الاستبداد . الذي يبدو أنه ضروري لاختبارها . ما أسعد الدول التي يكتب لها ، بعد هذه المحنة ، البقاء ! »[١٨] .

وقاسم أمين لم يكن بذلك يفند ترهات مفكري الغرب الاستعماريين وحدهم ، بل وينقض حجج القوى الوطنية المحلية التي تعادي التطور على وهم أن بالامكان إيقاف قانونه عن العمل ، والعودة إلى الماضي أو الحفاظ على بقايا آثاره التي تشد المجتمعات الشرقية إلى الوراء ..

---

(١٨) المصدر السابق، جـ ١ ، ص ٢٧٧ .

وهو في سبيل الرد على هؤلاء وهؤلاء يمضي متسائلاً ليقول : « . . . انني ـ بكل حسن نية ـ لا أرى لماذا يقف ماضينا ـ كما أرى ، أو حاضرنا ، كما يراه دوق داركور ـ مهما كان سيئاً ، حائلاً بيننا وبين التقدم حسب قانون التطور نحو الكمال ، وهو القانون الذي يسودِ حركة الكون كله ؟ ! »[19] .

وكما أثمر إيمان قاسم أمين بهذا المنهج الاجتماعي تلك الثمرة التي جعلته يرى الأسباب في علاقاتها بالمسببات ، والتي جعلته يشير إلى السبل العلمية المثلى في دراسة ظواهر التاريخ والمجتمع والانسان . فهي أيضاً قد أثمرت تحذيره من الظن بأن التغييرات التي تحدث في الأبنية العلوية للظواهر الاجتماعية قادرة على إحداث تطور حقيقي في هذه الظواهر . . فتغيير الواقع الاجتماعي هو الذي يحدث التغيير الحقيقي ، وليس تغيير القوانين والقيادات هو الفاعل الحقيقي في تلك المجتمعات . . وعن هذه الحقيقة الهامة يقول : « ان حالة الأمة ، في السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر ، ليست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة ، بل انها نتيجة لازمة لا تتغير إلا إذا تغير ما بنفس هذه الأمة . . والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول ، فهي لا تتغير أبداً إلا بحال آخر ، بمعنى أن ارادة شخص أو مائة شخص أو إصدار

---

(١٩) المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٥٦.

قانون أو مائة قانون ، كل ذلك لا يؤثر فيها بشيء محسوس ! » [٢٠] .

تلك كانت درجة إيمان قاسم أمين بأهمية القاعدة المادية للظاهرة الاجتماعية ، وكيف أن تغييرها هو السبيل الحقيقي لاحداث التغييرات الحقيقية والتطورات ذات القيمة التي يسعى الانسان لانجازها كي يتطور بمجتمعه وواقعه إلى الأمام .

* * *

بل لقد خطا قاسم أمين في هذا السبيل ، إلى الأمام ، خطوات أكثر تحديداً وأشد عمقاً وأنضج في باب الايمان بالمنهج الاجتماعي في البحث والدرس والاصلاح .. فوجدناه يركز على أهمية العامل الاقتصادي والأسباب الاقتصادية ، ويبرز دورها المتميز في تحديد الصورة العامة للظاهرة ، ويؤكد على فعاليتها في التطور إذا ما شملها التغيير والتطوير .

فهو عندما فكر في كتابة مقالاته التي نشرها في « المؤيد » حدد منهجه ، ونبه على أن عينه ستكون أكثر تركيزاً على العوامل المؤثرة في المجتمع ، بهدف إلقاء الضوء على السبل الحقيقية للتغيير المنشود .. وبصدد حديثه عن منهجه هذا كتب يقول : « .. شرعت في هذا العمل .. باحثاً عن حالتنا

---

(٢٠) المصدر السابق، جـ١ ص ١٩٠ .

الراهنة ، لا من جهة السياسة ، فإني لست مشتغلاً بها إلا من حيث كوني مصرياً أحب الوقوف على الحوادث التي تجري في وطني ـ وللسياسة الآن قائمون ، والحمد لله ، بخدمتها واستخدامها أكثر مما يحتاج إليه الحال ، بل من الجهات الأخرى ، كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين . . . »[٢١] .

فهو هنا يضع عامل الاقتصاد و « المعيشة الاقتصادية » قبل عوامل : التربية ، والعوائد ، والدين .

وفي موطن آخر يزيد هذا الموقف حسماً ووضوحاً عندما يقول : « ان أهم عامل له أثر في حال الأمة هي حالتها الاقتصادية . . ومن الأسف هذه الحال الاقتصادية ليس في إمكان أحد من الناس أن يحكم عليها ويديرها كيف يشاء »[٢٢] .

وهو هنا يشير ـ بعد تقريره أن الحالة الاقتصادية هي أهم العوامل تأثيراً في حالة الأمة والمجتمع ـ يشير إلى أن لهذا العامل قوانينه العلمية التي لا بد من الوعي بها ، لأن تصور تغييرها بالأهواء أو التصرفات الذاتية والعلوية أمر خارج عن الامكان .

---

(٢١) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٩١ .

(٢٢) المصدر السابق، جـ ٢ ص ١٦٩ .

فإذا انتقل للحديث عن المرأة وجدناه ينبه إلى دور العامل الاقتصادي في أوضاعها الراهنة ، إن سلباً أو إيجاباً .

فللعامل الاقتصادي الدور الأغلب في انحراف المرأة الخلقي وتفريطها في عفتها وسلوكها المسلك المشين ، ولذلك فإنه يمكن أن يقال : « أننا لو بحثنا عن السبب الذي قد يحمل تلك المرأة المسكينة التي تبذل نفسها في ظلام الليل لأول طالب ـ وما أكبر هذه المذلة على المرأة ـ لوجدناه في الأغلب شدة الحاجة إلى زهيد من الذهب والفضة . وقلما كان الباعث على ذلك الميل إلى تحصيل اللذة . . » (٢٣) .

كما يبصر العلاقة بين الوضع الاقتصادي لطبقة من الطبقات وموقف هذه الطبقة من ظاهرة تعدد الزوجات مثلاً . . فالتعدد لا ينتشر في الأوساط الريفية التي لا ينتج أهلها ما يسد رمقهم ، كما ينتشر في أوساط الأثرياء الذين ورثوا الثروة والجهل والتخلف والبحث عن اللذات . . يقول قاسم أمين :

« وأستطيع أن أؤكد ان حالات تعدد الزوجات نادرة في مصر . ونتحدث عن الريف في البداية ، فالفلاح متمسك بالزوجة الواحدة ، بشكل جذري ، وسبب هذا أنه يكسب ما يكاد ينقذه من الموت جوعاً . أما في المدن فقد بقي بعض

---

(٢٣) المصدر السابق، جـ٢، ص ٢١ .

رجال النظام القديم المتزوجين بأكثر من واحدة ! . . . »[٢٤] .

فللتعدد ، وجوداً وعدماً ، قلة وكثرة ، علاقة وثيقة بالوضع الاقتصادي لكل طبقة من الطبقات أو فئة من الفئات .

* * *

هكذا يتكشف لنا قاسم أمين عن مفكر ومصلح امتاز بالايمان والاستخدام لذلك المنهج الاجتماعي الذي أعانه على دراسة المعضلات التي عرض لها بالدرس والاصلاح .

فهو قد أكد على ضرورة الربط بين الفروض والأفكار والنظريات وبين الواقع والممارسة والتطبيق . . وذهب في ذلك مذاهب تكشف عن عمق وأصالة علمية كبيرة .

وهو قد وعى القوانين التي تحكم الظواهر ، طبيعية كانت أو اجتماعية أو انسانية . . واستخدم وعيه في تسديد خطاه كباحث ومصلح ، وفي رد سهام الأعداء الذين كانوا يناصبون وطنه وأمته العداء .

وهو ، أخيراً ، قد أدرك أهمية القاعدة المادية للمجتمع وحالته الاقتصادية على وجه الخصوص ، ودور هذه الحالة في أية عملية للتغيير أو التطوير يراد بها الانتقال بهذا المجتمع خطوة أو خطوات إلى الأمام .

---

(٢٤) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٨٨.

المجتمع الذي بشر به

[إن التربية هي : رأس مال لا يفنى !..

وحياة كل أمة مرتبطة بماليتها .. والتجارة هي علم الثروة الحقيقي .. وليس الغرض أن يجمع الانسان المال حباً في المال ، بل المراد أن يكون لديه طموح شريف إلى العلاء .

والاستبداد أصل كل فساد في الأخلاق .. والحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر ..

فكم من الزمن يمر علينا قبل أن نبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟!..] .

قاسم أمين

كان قاسم أمين واحداً من المصلحين البارزين في مدرسة الاستنـارة واليقـظة والتنـويـر في مصـر والشـرق العـربي والاسلامي ، تلك المدرسة التي تكونت أول ما تكونت بمصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ورائدها هو رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) .

وكان الموقف الاجتماعي لهذه المدرسة يستهدف التطور بـالمجتمع من مـرحلة الاقطاع ، والانتقـال بـه إلى المـرحلة البورجوازية ، بكل ما تعني هذه المرحلة من استنارة ومواءمة بين تدين الشرق وعلمانية الغرب وعقلانيته - مستفيـدين في ذلك بما للاسلام من مواقف ومبادىء تنتصر للعقل وترفض الكهنـوت والسلطة الدينيـة - وبكل مـا تعني هـذه المـرحلة البورجوازية كذلـك من اعلاء لشـأن « العمل » ونقـد لقيم التبطل التي تميزت بها مجتمعات الاقطاع وكبار الملاك ، والدعوة إلى إشاعة التنافس والطموح ، وتنبيه الناس إلى أهمية التجارة والصناعة وتكوين الشركات ، وخوض غمار المنافسة والمخاطرة

في هذه الميادين ضد أوروبا التي كانت تزحف لنهب ثروات المجتمعات الشرقية ، سواء في صورة شركات وجاليات ومغامرين ، أو في ظل جيوش وسلطات احتلال تحمي وتقنن ذلك النهب والاستنزاف . . [٢٥] .

ومن هنا فإننا نجد لدى مصلحي مدرسة التنوير هذه ، عندما يكون حديثهم عن الموقف الاجتماعي ، قاسماً مشتركاً يتمثل في أمرين محددين :

أولهما : نقد بقايا المجتمع الاقطاعي القائم ، وتسفيه قيمه ، والازدراء على الأعراف التي سادت مجتمعات كبار الملاك . . وكان كثير منهم بمصر يومئذ من المتمصرين والشراكسة والأتراك .

وثانيهما : الدعوة إلى احلال قيم المجتمع البورجوازي ـ وكانت هي الأكثر تقدماً بالنسبة لمجتمع الاقطاع وكبار الملاك ـ الدعوة إلى احلالها كبديل لقيم المجتمع القديم .

ونحن إذا نظرنا في الفكر الاجتماعي لقاسم أمين ، وبحثنا عن نوعية المجتمع الذي بشر به مواطنيه ، وجدناه

---

(٢٥) انظر الفصل الذي كتبناه عن الفكر الاجتماعي لرفاعة الطهطاوي في تقديمنا لأعماله الكاملة، جـ١ ص ١٧٥ ـ ٢٠٠ .

يدعو إلى هذين الأمرين المحددين بوضوح وجلاء .

فهو يوجه نقده إلى المجتمع القائم ، ويعيب عليه ضعف طبقة البورجوازية ، التجارية والصناعية فيه ،. . ويسفه من الهالات التي بها ، هذا المجتمع فئة الموظفين ، لأنهم بلا سند اقتصادي يضمن لهم لقمة العيش إذا ما تأخرت عنهم المرتبات ! ومن ثم فلا دور لهم في الانتاج والتطور الاقتصادي للمجتمع الذي يخدمون حكومته . . ويوجه سهامه إلى الوضع المزري لطبقة كبار الملاك الذين أغرقوا أنفسهم في التبطل وكبلوا طاقاتهم بالسفه والتبذير بعد أن أغرقوا ممتلكاتهم الزراعية في الديون .

يوجه قاسم أمين انتقاداته هذه فيقول :

« ان مصر بلدة فقيرة جداً ، نصف أهلها ، وهم الفلاحون ، يعيشون بالشيء التافه الذي يقي الحي من الموت جوعاً . والنصف الأخر ينقسم إلى قسمين :

الأول : يشمل التجار والصناع . . وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه : أنه مالي ملي !

والآخر : يحتوي على الموظفين وأرباب المعاشات . وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار ، نوعاً ما ، في معيشتهم ، ولكن

أغلبهم ان حيل بينهم وبين مرتبهم شهراً واحداً وقعوا في العسرة والضنك الشديد !

أما أرباب الأطيان ، من الذوات والعمد والمشائخ والأعيان في البلاد ، فحالهم كحال « رابيل » ، المؤلف الفرنساوي المشهور ، إذ قال في وصيته : « اني لا أملك شيئاً ، وعلي ديون كثيرة ، وأوصي ببقية ما أملك للفقراء » !! والبلد التي يكون أهلها فقراء ، مثلنا ، لا يمكنها ، ما دام فقرها ، أن تؤمل خيراً في المستقبل ، لأن حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها ، إذ بالمال يتم كل شيء ، وبغير المال لا يتم شيء مطلقاً ! » [٢٦] .

وفي موطن آخر يسلط هجومه على قيم الكسل والتبطل والزهو والتواكل التي تسود المجتمع القديم ، ويعلل انتشار هذه القيم المناهضة للطموح والمنافسة بسيادة الاستبداد السياسي الذي قهر ملكات الناس وكره إليهم استثمار طاقاتهم عندما أيقنوا أن المستبدين هم الذين يجنون ثمار الطموح والاجتهاد ، وساعد الاستبداد في ذلك سوء التربية وانتشار الفكر الضار والمعوق لتطور المجتمعات .

يتحدث قاسم أمين في ذلك عندما يعرض لمكان الانسان المصري من « العمل » و « الطموح » فيقول : « ان المصري

---

(٢٦) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٩١، ١٩٢.

طماع - (طموح) - كغيره ، وليس عنده من الزهد ما ليس لغيره ، ولكنه مع ذلك لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه . فهو إذن يحب أن تمطره السماء ذهباً وأن تنبته الأرض فضة ، يحب أن يكون أغنى الناس ، على شرط أن لا يتعب جسمه ولا يجهد فكره ! . . والسبب في سقوطه هذا أمران :

الأول : سوء معاملة الحكومات السابقة له ، فإنها لغدرها وظلمها أضاعت الأمانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية ، ففقد المصريون بذلك ملكة الاقدام على العمل والمخاطرة في الشغل .

والثاني : سوء تربيته ، فإن عدم تشغيل الجسم وتحريك الأعضاء والجلوس ساعات ، بل وأياماً ، على المقاعد والمراتب والمصاطب ، وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ ، وترك النظر في الأشياء ، مع شدة التمسك بالأقوال والأمثال المثبطة للهمم المميتة للعزائم ، وتكرار سماع القصص والأحاديث التي وضعت في الأصل لتسلية الفقير وإزالة الأحزان عن الضعفاء قليلي الحول والحيلة . . ولكن غشيتنا جهالتنا ، وألفيناها قد اتفقت مع كسلنا وخمولنا فنشرناها وروجناها ، وحشيناها ووشيناها ، حتى تشربت بها أرواحنا وعقولنا ! » [٢٧] .

* * *

---

(٢٧) المصدر السابق ، جـ ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

وبدلاً من هذه القيم التي كانت لها السيادة والانتشار في ذلك المجتمع الاقطاعي ، بشر قاسم ، كغيره من مصلحي مدرسة التنوير ، بقيم المجتمع الجديد .. فهاجم الزهد والقناعة والرضا بالقليل ، ودعا إلى الطموح وطلب المزيد والمزيد مما هو مشروع .. وقال وكتب مؤكداً أن « من البديهي أن الانسان لا يشتغل ليعيش فقط عيشة الكفاف ، لأنه لو كان هذا داعي الفطرة البشرية لما كان التنافس في المزيد . فعلى الانسان أن يسعى ، والحالة هذه ، لتحسين حالته المادية والأدبية ، فإن كان يكسب في اليوم قرشين ، فعليه أن يجتهد في توصيلها إلى خمسة ، ثم إلى عشرة ، وهكذا ..

وليس الغرض .. من تحسين الحال ، على هذه الطريقة ، أن يجمع الانسان المال حباً في المال ، بل المراد أن يكون عند كل واحد طموح شريف إلى العلاء ، ولا يكون له ذلك إلا إذا سعى في استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه ، وأن يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجاته المادية في ترقية عقله وتربية أولاده بالرياضة والتعليم والسياحة ، وأن يأتي من الأفعال النافعة لهيئة المجتمع ما يغبط غيره على فعله ... »[٢٨] .

وفي مواجهة القيم التي تمجد التبطل والكسل

---

(٢٨) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٩٦، ١٩٧ .

و « الراحة » ، يبشر قاسم أمين « بالعمل » المنتج ، وذلك من خلال نقده لتكالب الناس على « العمل » كموظفين في الجهاز الحكومي ، مع أنه « لو تذكر الناس أن الشرف والمجد لا يصادفان في طائفة الموظفين إلا بنسبة قليلة جداً ، وأن كل إنسان قادر على أن يرقي نفسه بنفسه ، وأن يعلو على أكبر ملك في الدنيا بفضيلته وعلمه . لما رأى ورأوا في انفصاله من خدمة الحكومة إلا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تنقصه شيئاً ! . . » (٢٩) .

والتعليم . . يعلم قاسم أمين قومه بأنه أكثر من معارف مجردة تطلب لذاتها ، فإن له دوراً في تنمية الحياة . . بل لقد تحدث عنه على أنه « استثمار » رابح بمقاييس « الاستثمارات » والأرباح . . ومن هنا كان « كل ما يصرف في سبيل التعليم والتربية ، كالدراسة ومطالعة الكتب والجرائد والسياحة ، لازم . . انه لا يجوز مطلقاً الاستغناء عن صرف الأموال في هذا السبيل ، كما لا يمكن الاستغناء عن الغذاء الذي هو قوام الحياة . . لأن التربية هي رأس مال لا يفنى ، أما المال فما أقرب ضياعه ، وخصوصاً في يد الغبي الجاهل ! » (٣٠) .

* * *

---

(٢٩) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٣٠) المصدر السابق، جـ ١ ، ص ٢٠٦ .

وكما سبقت إشارتنا فلقد كانت قيم المجتمع الاقطاعي تعلي من قدر كبار الملاك بالوراثة ، والأثرياء بالوراثة ، وترفع شأنهم الأدبي والاجتماعي فوق شأن التجار والبورجوازية التجارية التي يعمل أهلها بأيديهم وينمون ثرواتهم وثروة المجتمع .. ولذلك وجدنا قاسم أمين يسفه من فكر كبار الملاك ويسخر من « شرفهم ونبلهم » المزعومين ، ويعلي من قدر هذه البورجوازية التجارية التي كانت في دور النشأة والتكوين ، فيتحدث كيف « كان المصريون ، إلى عهد غير بعيد ، ينظرون إلى التجارة بعين الاحتقار ، ويحسبون أنها مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار ، وإلى الآن لا يزال هذا الزعم منبسطاً على عقول بعض الأمراء والذوات الذين متى توشحوا الكساوي الموشاة بالذهب ، ووضعوا النشانات على صدورهم ، وعلقوا في مناطقهم السيوف تجر على جوانبهم إلى الأرض ، تخيلوا أنهم من إنسانية أخرى أعلى من إنسانية هؤلاء التجار الذين يشتغلون بأيديهم .. وهم يرون كل خدمة غير « أميرية » وكل حرفة حرة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هي أشياء لا يليق الاشتغال بها . ولهذا كله لم يشتغل منا حتى الآن بالتجارة إلا فئة قليلة ، برهنت على إرادة وإقدام وأصالة رأي تستحق عليها ثناء الأمة المصرية بأسرها .

ولو قارن أي إنسان ، لم يعمه الجهل ، بين هؤلاء التجار الذين دخلوا ميدان الحياة .. وبين أولئك الذين منبع ثروتهم ، في الأغلب ، العطايا والمنح التي كانت تمطر عليهم

بسبب كلمة وافقت المزاج ، أو لسبب خدمة خصوصية أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة لرأى أي فريق يحق له أن يعجب بنفسه أو يحتقره الآخر ! » [٣١] .

ولقد كان قاسم أمين يعي جيداً أن ضعف البورجوازية التجارية الوطنية يترك المجال فسيحاً وسهلاً للنشاط التجاري الذي يقوم به الأجانب والنازحون إلى بلادنا ، فأخذ ينبه قومه إلى قيمة التجارة كحرفة ، بل وكعلم من أشرف العلوم ، لدى الدول الأوروبية المتقدمة والاستعمارية ، ويستنفر أبناء وطنه لمزاحمة الأوروبيين في هذا الميدان . . فأهاب « بالآباء أن يعدوا أبناءهم إلى غاية الوصول إلى السعادة ، وأن يفتحوا أمامهم أبواب الآمال ، لأنها أبواب الثروة الحقيقية ، وأن يعطوهم الوسائل للحصول عليها ، وأول شيء يجب أن يلتفتوا إليه اليوم هو التجارة » .

ان الأوروبيين يجمعون الأموال الهائلة . . « لأنهم فهموا ان التجارة هي علم الثروة ، وهي علم حقيقي لا يقل في الفضل عن أشرف العلوم ، ويدرس في المدارس ، ويتمم بالاختبار والعمل [٣٢] . . وأنت أيها المصري البطال ، ابن البلاد ، وأدرى بما فيها ، ولك فيها القريب والحبيب ، فلماذا

---

(٣١) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٣٢) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٠٠ .

لا تفعل كما يفعل الغرباء النازحون إلى بلادنا ؟! » [٣٣] .

كما يلمس دور المصالح الاقتصادية ، والتجارية منها خاصة ، في الصراع العالمي بين الدول الاستعمارية المتنافسة ، ويورد نبوءة الساسة بقيام الحرب العالمية الأولى ، وذلك قبل حدوثها بما يقرب من العشرين عاماً ؟! . . وذلك عندما يكتب فيقول :

« ان أمم أوروبا قد وجهت التفاتها إلى المسائل الاقتصادية واعتناءها بها كل الاعتناء ، فأنشأت نظارة - (وزارة) - للتجارة ، وللصناعة ، وللمستعمرات ، وأكثرت من انشاء المدارس التجارية والصناعية ، وتهافتت على وسائل الاستعمار ، وصارت كل أمة تزاحم الأخرى في هذا السبيل . . حتى أن رجال السياسة صاروا يعتبرون أنه لا بد من الحرب يوماً بين انجلترا والمانيا ، لأن المنافسة بين الأمتين في جميع أنحاء الدنيا أوصلتهما إلى درجة اعتقاد أن إحداهما لا يمكن أن تستمر في طريقها إلا إذا سحقت الأخرى ! » .

ثم يستطرد ليقرع الأسماع بأن البلاد الضعيفة المستعمرة ، ومنها مصر ، هي موضوع التنافس والصراع المحتدم بين هذه القوى الاستعمارية ، وأن النهضة هي سبيل إفلاتها من مصيرها الأليم ، فيقول : « اننا نحن المصريين لا

---

(٣٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٩٥ .

شغل لنا إلا التفرج على المتنافسين .. والحقيقة اننا نحن موضوع تنازعهن ، وسبب مشاكلهن ، نحن اللقمة الدسمة التي يريد كل منهما - (الانجليز والألمان) - أن يبتلعها في جوفه ! »[٣٤] .

ان قاسم أمين يدعو إلى مجتمع يكثر فيه الأثرياء الذين يحصلون ثرواتهم بالعمل ليل نهار ، ويتمنى لمجتمعه أن يكون مثل تلك المجتمعات التي توصلت أممها « الى اقتناء الثروة ، وكثر فيها الأغنياء الماليون الذين أصبحوا يتعاملون بالملايين ، كما نحن نتعامل بالعشرات والمئات ! » .

ثم يضيف متحفظاً على طرق جمع الثروة ، فينبه أن طريق العمل يجب أن يكون هو السبيل لتحصيلها ، قائلاً : « ... ولكن الشيء المهم ، الذي أرجو ملاحظته ، هو أن كل ثروة من هذه الثروات الهائلة هي نتيجة عمل صاحبها .. إنه يشتغل ليكسب ، يشتغل دائماً ، يشتغل في النهار ، ويفكر في شغله بالليل ! »[٣٥] .

فهو داعية للتطور الرأسمالي ، ومناضل من أجل إزالة العوائق الاقطاعية من طريق هذا التطور ، ومبشر بقيم المجتمع البورجوازي .. ولقد كان هذا الطريق ، بالنسبة لمجتمعه

---

(٣٤) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٩٢ .

(٣٥) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٩٢، ١٩٣ .

وعصره ، من أكثر الطرق قدرة على تنمية المجتمع وتطويره وتقدمه في ذلك التاريخ .

* * *

وإذا كانت هذه هي الدعوة التي بشر بها قاسم أمين فيما يتعلق بالقاعدة المادية للمجتمع الذي نقده ، والذي بشر به ، فإنه قد صنع ، في إطار البناء الفوقي للمجتمع ، ما يتسق مع هذه الدعوة كل الاتساق .. فهو قد هاجم الاستبداد ، الذي كان سمة للحكم الشرقي الفردي الاقطاعي .. ودعا إلى الحرية كما عرفتها المجتمعات البورجوازية الليبرالية في أوروبا . وطالب بالحياة النيابية في وقت مبكر جداً ، إذا ما قيس بالأصوات التي ارتفعت بهذا المطلب بعد هزيمة الثورة العرابية واحتلال الانجليز للبلاد .

فهو يتحدث عن « أن الاستبداد أصل كل فساد في الأخلاق ... » [٣٦] .

ويطالب بأن تكون الحرية في الاعتقاد ، وفي التعبير عن المعتقدات مصونة ومكفولة ، بل ومقدسة ، مهما تكن الآراء والمعتقدات التي يعتنقها الناس ويعبرون عنها .. يقول : « ذلك لأن الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ، ونشر كل

---

(٣٦) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٢٠ .

مذهب ، وترويج كل فكر . . في البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بأنه لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله ، ويطعن في شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادىء التي تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية ، يقول ويكتب ما شاء في ذلك ، ولا يفكر أحد ، ولو كان من ألد خصومه في الرأي ، أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه ، متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح » .

ثم يتساءل : « كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟ ! »[٣٧] .

وهو ينبه إلى أمر هام جداً عندما يربط بين احترام المجتمع للفضيلة ومقته للرذيلة وبين قيام رأي عام قوي في هذا المجتمع ، إذ « لا يمكن أن تصير الفضيلة مطلوبة مرغوباً فيها ، والرذيلة ممقوتة مبغضة إلى النفوس إلا إذا أحس الناس بقوة حكم الرأي العام وسلامته ! »[٣٨] .

فلا المواعظ والخطب ، ولا الوصايا والتحذيرات بفاعلة شيئاً ذا قيمة في اعلاء شأن الفضيلة وخفض منزلة الرذيلة كما يفعل ذلك قيام الرأي العام صاحب الحكم القوي والسليم ! .

ثم يتوج قاسم أمين فكره الديموقراطي بالدعوة إلى

---

(٣٧) المصدر السابق، جـ ١، ص ١٦٤، ١٦٥ .

(٣٨) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٢٦ .

الارتقاء من المجالس البلدية والمجلس التشريعي الاستشاري الذي أقامته سلطات الاحتلال الانجليزي بديلاً عن المجلس النيابي الذي حلته بعد هزيمة الثورة العرابية .. يدعو قاسم أمين إلى الارتقاء خطوات من هذا النظام الذي مرت عليه عشر سنوات ، إلى نظام المجلس التشريعي البرلماني غير الاستشاري .. فيكتب في سنة ١٨٩٤ م قائلاً : « لقد اكتسب اليوم المجلس التشريعي ثقة كبيرة لا يمكن نكرانها ، حتى أن قادتنا يستلهمونه أفكارهم . كما باتت كثرة من المصريين المعتدلين ، وأنا واحد منهم ، ترى أن هذه السنوات العشر تمثل تدريباً كافياً ، وأن مصر بعد الفتها للتمثيل القومي قد أصبحت جديرة بأن يكون لها مجلس نواب لا يكون استشارياً فقط ، لقد نضجت مصر بما يتيح لها عمل هذا الاصلاح . غير أننا نود بالطبع نظاماً تكون فيه الغلبة للمعرفة الواعية ، لا للكم العددي ... » [٣٩] .

* * *

هكذا فكر ، وكتب قاسم أمين .. وهكذا نلتقي في آثاره الفكرية بما يؤكد انه كان ناقداً للمجتمع الاقطاعي ، مهاجماً لقيمه .. مبشراً بقيم المجتمع البورجوازي ، وداعياً إلى فتح الطريق أمام المجتمع المصري كي يدخل إلى رحابه ، بعد أن يخلف وراء ظهره مجتمع الاقطاع وكبار الملاك .

---

(٣٩) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٤٥، ٣٤٦.

التطور الفكري

[* إن ديننا قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذي لا تدخله امرأة واحدة ، وأن يجتمع النساء دون أن يقبل بينهن رجل واحد ، وذلك حماية لهما من الضعف وقضاء على مصدر الشر .

* ليس في الشريعة نص يوجب الحجاب .. وإنما هي عادة أخذناها عن بعض الأمم .. وان نساء العرب والقرى المصرية ، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا ، أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن المحجبات .. ان المرأة التي تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة !

* انني لا أفهم أن يقيم الانسان دعوى لتحصيل الطلاق ، فتلاقي الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضي !

* ان وضع الطلاق تحت سلطة القاضي أدعى إلى تضييق دائرته ، وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج !..] .

قاسم أمين

عندما أصدر قاسم أمين كتاب « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م أحدث ضجة كبرى في المجتمع المصري والمجتمعات الشرقية ، بل لعله قد أحدث أكبر وأهم معركة فكرية قامت في الشرق من حول كتاب في القرن الذي ظهر فيه .

ولقد صدرت للرد عليه مجموعة كبيرة من الكتب ، فضلاً عن الفصول والدراسات والمقالات ، بل لقد صدرت صحف متخصصة تفرغت ، تقريباً ، للجدل في موضوع الكتاب ، ان بالتأييد أو المعارضة والتفنيد .

ولقد كانت القضايا الرئيسية التي أثارت الجدل أكثر من غيرها ـ من بين قضايا « تحرير المرأة » ـ هي :

١ ـ ما أثاره الكتاب عن الحجاب الذي كان يسود عالم المرأة في ذلك الحين .

٢ ـ ما دعا إليه من ضرورة تقييد الحق المطلق الممنوح

للرجل في انهاء رابطة الزوجية بالطلاق .

٣ ـ نقده لنظام تعدد الزوجات ، والدعوة إلى ضبطه وتقييده .

وكان وراء الاهتمام بهذه القضايا ، أكثر من غيرها ، تمثيلها لأهم عيوب النظام الأسري السائد ، ولأبرز مشاكل المرأة الشرقية ، ولأخطر القيود التي تحد من إمكانيات تطورها وتحررها وكذلك ـ وهو هام جداً ـ العلاقة الوثيقة بين هذه القضايا ، والبحث فيها ، وبين الشريعة الاسلامية . . ذلك ان الجدل حول أية قضية ذات علاقة بالدين أو الشريعة الاسلامية إنما ينقل ، وعلى الفور ، هذا الجدل من النطاق الضيق والخاص إلى الساحات العامة التي تتواجد فيها وتشارك أوسع الجماهير ، بصرف النظر عن القدرة على استكناه حقائق الأمور والصلاح للادلاء بما هو صواب من الآراء ! .

ونحن نعتقد أن خصوم قاسم أمين وكتابه « تحرير المرأة » لو فكروا ، أو فكر واحد منهم ، في ترجمة كتابه « المصريون » عن الفرنسية إلى العربية ـ وهو الذي صدر قبل « تحرير المرأة » بخمس سنوات لكان الذي يرد على قاسم أمين في « تحرير المرأة» هو قاسم أمين في «المصريون»؟! . . وبالذات فيما يتعلق بالقضايا الأساسية الثلاث التي أثارت الجدل والعراك .

ذلك ان قاسم أمين قد قدم في « تحرير المرأة » الآراء التي كان ينقضها ويفندها في « المصريون » ، ومن ثم فإننا عندما نقرأ كتابه « المصريون » يخيل إلينا ان الذي يتحدثون ويبرهنون ويجادلون هم خصوم قاسم أمين ، وبالذات فيما يتعلق بالحجاب ، والطلاق ، وتعدد الزوجات !!

وهذا هو الأمر الذي دعانا لأن نعقد هذا الفصل عن التطور الفكري لقاسم أمين . . والذي يدعونا للتساؤل : كيف لم يلتفت إلى هذه الحقيقة ، لا خصومه فقط سنة ١٨٩٩ م ، بل ولا أحد من دارسيه بعد ذلك التاريخ ؟!.

صحيح أن البعض قد أشار إلى أن قاسم قد (فصل) في « تحرير المرأة » بعض ما أجمله في « المصريون » [٤٠] ، كما أشار آخرون إلى أن حماسه لبعض الآراء في « المصريون » قد استبدل بالروح الهادئة والمنطق الموضوعي في « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » . . ولكننا نعتقد أن هذا التشخيص غير كاف ، بل وغير دقيق ، حتى لقد خيل إلينا أن دارسيه الذين لم يقفوا عند هذا التطور الفكري الجذري الذي حدث لقاسم أمين ، اما انهم لم يقرأوا « المصريون » ، أو أنهم قرأوا قراءة

---

(٤٠) « الهلال » تأبين قاسم أمين : انظر مقدمة الناشر لكتاب « أسباب ونتائج » ، ص ١٣ .

العابر المتعجل الذي لا تستوقفه أبرز المعالم في هذا الكتاب ؟!

ولتوضيح هذه الحقيقة الهامة .. لننظر في فكر قاسم أمين في كتابيه هذين ـ « المصريون » و « تحرير المرأة » ـ خاصة ما تعلق منه بهذه القضايا الثلاث :

الحجاب والمجتمع الانفصالي

يدافع قاسم أمين في كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م عن نظام الحجاب السائد لعالم المرأة الشرقية على عصره ، ويمتدح النظام الصارم الذي جعل المجتمع الشرقي مجتمعاً إنفصالياً ، يحرم فيه اختلاط الرجال بالنساء ، ويهاجم تحرر المرأة الأوروبية ، ويغالي في تصوير مساوىء الاختلاط في أوروبا ، ويدمغ الرجل والمرأة الأوروبية ، غالباً ، بالتحلل والافتقار إلى العفة وصيانة الأعراض .. يقدم في هذه القضية كل ما قدمه خصومه فيها عندما أصدر « تحرير المرأة » في سنة ١٨٩٩ م !

فهو لا يرى في المجتمع الشرقي ، وما يتميز به من فصل بين الرجال والنساء ، أية قيود تحرم المرأة من حق أو تمنع عنها أي شيء نافع لها أو للمجتمع .. بل يرى أن المساواة متحققة تماماً بين الرجال والنساء ، ذلك « ان كل ما نستطيع أن نفعله نحن الرجال تستطيع النساء فعله ، بل ويفعلنه ، وكل ما هو مباح لنا مباح لهن ، وكذلك فإن كل محرم علينا محرم عليهن

أيضاً ، ولما كان محرم علينا ، نحن الرجال ، أن ندخل في مجتمع النساء فيبدو لي ، من الطبيعي ، أن يقع نفس التحريم على نسائنا . وإنني أكرر ، من وجهة النظر هذه ، أن وضع الرجل هنا مشابه لوضع المرأة تماماً ! »[41] .

ثم يقرر أن هذا المجتمع الانفصالي ، الذي كان سائداً يومئذ ، هو التطبيق الأمثل لوصايا وتعاليم الدين ، « لأن ديننا . . قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذي لا تدخله امرأة واحدة ، وأن يجتمع النساء دون أن يقبل بينهن رجل واحد . لقد أراد بذلك حماية الرجل والمرأة مما ينطوي عليه صدرهما من ضعف ، والقضاء الجذري على مصدر الشر ! »[42] .

نعم . . هذا هو كلام قاسم أمين ؟! . . هو كلامه في « المصريون » سنة ١٨٩٤ م . . وهو أيضاً مضمون كلام خصومه عند صدور « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م !

ثم يهاجم عادات الأوروبيين فيما يتعلق بالاختلاط ، متهماً إياهم بالتحلل الخلقي ، مصوراً أن نتائج الاختلاط غالباً ما تنتهي بفقدان المرأة عفتها وتفريط الرجل في عرضه . . يقول :

---

(٤١) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٧٩ .

(٤٢) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٩٣ .

« انني أعرف أنه يجب تكـوين رأي سليم في الجنس اللطيف ، وان النساء اللاتي يعرفن ابداء جمالهن يعرفن كذلك الدفاع عن أنفسهن ، غير أنا لا نصـادف كل يـوم قلاعـاً حصينة ، فبعد المعارك الكبرى تدق ساعة الاستسلام ، المسألة مسألة صبر ، و « استراتيجية وتكتيك » ! ثم انه حيث يفشل محارب ينتصر آخر أكثر مهارة منه ، والمهم هو البحث عن الظروف الملائمة للنجاح ، والانطلاق في الهجوم الحاسم ، في اللحظة المناسبة ، لا قبلها ولا بعدها ! » [٤٣] .

وهو لا يعرض هذه الصورة التي تجعل من الاختلاط وتحرر المرأة الأوروبية عملاً مكرساً ، أساساً ، لشيوع التحلل والاستمتاع الحرام . . لا يعرضها بـوصفها انحـرافاً أصـاب المجتمـع الأوروبي ، وخرج بـه عن فكره المتمسـك بالعفـة والشرف ، بل يرى في هذه الصورة التطبيق لفكر الأوروبيين في هذا الموضوع . . فيقول :

« يبدو من أفكار الأوروبيين ان استمتاع المرء بالسعادة وحده هو زعم مرفوض ، بل ان الرجل المتزوج من امرأة جميلة يرتكب حماقة إذا رغب في الاستئثار بها ، ان عليه أن يتيح لها أن تعاونه ، وتدلي بدلوها في ارضاء أصدقائه ، وهو يفهم أن يمزح أصدقاؤه معها وأن يحاولوا الظفر بقلبها ، ويوجهوا إليها

---

(٤٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٩٣، ٢٩٤.

عبارات الغزل المتصلة ، دون أن يقلق الزوج أو يسيء النظر إليهم ، فهم في الواقع فتيان شجعان ، وبعضهم أصدقاء منذ الطفولة ، ولا شيء مما يفعلونه يعد جاداً أو خطراً ، والأمر ، كما يرى ، مجرد دعابة ، ولا شيء غير ذلك ! كما يمنح الزوج في نفس الوقت اهتماماً لزوجات الآخرين ، ويخاطبهن بنفس اللغة ، ويقول لهن نفس المجاملات ، ويوجه اليهن نفس عبارات الغزل ، تلك هي متعة اللقاءات المشتركة ! »(٤٤) .

ثم يقارن بين موقفنا نحن الشرقيين من هذه القضية وعاداتنا وتقاليدنا ، وبين موقف الأوروبيين وعاداتهم وتقاليدهم عندما يقول :

« انه على نقيض العادات الأوروبية ، التي يبدو أنها خلقت لنشر المتعة على الأرض . . تبدو عاداتنا نحن مستلهمة من الفضيلة . . ان في العالم الاسلامي مفكرين متحررين وملاحدة ومتشككين وماديين ، وهناك الذين تبنوا العادات الأوروبية في كل تفاصيل حياتهم ، غير أنه لا يوجد ولن يوجد مسلمون يقبلون الزواج في ظل العادات الأوروبية ، ويجب لقبولهم هذه العادات أن ينتظروا حتى تسود العالم كله النظرية الفوضوية عن العلاقات الزوجية المتحررة من جميع القيود . .

ان عليهم أن يعترفوا كذلك بأننا حين نتزوج نحمل إلى

---

(٤٤) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٩٢ .

نسائنا روحاً ما زالت نقية ، وقلباً ما زال مكتمل الحنان ، وحواس أكثر نداوة مما يفعلون هم ساعة زواجهم . فالزواج عندنا بداية ، في حين أنه عندهم ، تقريباً ، دائماً نهاية ! »[٤٥] .

هكذا كتب قاسم أمين في كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م .

١ ـ فحبذ الحجاب للمرأة الشرقية ، ودافع عن المجتمع الشرقي الانفصالي . . ورأى في ذلك التطبيق الأمين لتعاليم الاسلام ، والتحقيق للمساواة الحقة بين الرجال والنساء .

٢ ـ ووجه سهام نقده وهجومه إلى الاختلاط في أوروبا ، وعمم على مجتمعاتها تلك الصورة التي ربما كانت خاصة بشريحة هامشية في تلك المجتمعات .

٣ ـ وخلص إلى أن الشرق والمرأة الشرقية ليست لديها قضية ولا مشكلة تستحق البحث والدعوة إلى التغيير . . وان المشكلة هناك لدى أوروبا التي أباحت الاختلاط ففقدت النعيم الذي ينعم به الشرقيون ؟!

والآن ماذا كتب قاسم أمين عن هذه القضية في « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ ؟!

في « تحرير المرأة » ينقض قاسم أمين ما قرره من قبل من

---

(٤٥) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

أن الحجاب ميزة للمجتمعات الشرقية ، يرتبط فيها بتعاليم الاسلام . . ويراه « عادة » مرت بمجتمعات عديدة ، ومنها مجتمعات أوروبية ، ويقرر أن تطور هذه « العادة » بل واندثارها أمر ممكن وخاضع لما تخضع له غيرها من « العادات » . يقول : وذلك « لأن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة في العالم » . قال « لاروس » تحت كلمة « خمار » : « كانت نساء اليونان يستعملن الخمار إذا خرجن ، ويخفين وجوههن بطرف منه ، كما هو الآن عند الأمم الشرقية » . وقال : « ترك الدين المسيحي للنساء خمارهن وحافظ عليه عندما دخل في البلاد ، فكن يغطين رؤوسهن إذا خرجن في الطريق وفي وقت الصلاة ، وكانت النساء تستعملن الخمار في القرون الوسطى ، خصوصاً في القرن التاسع ، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريباً ، واستمر كذلك إلى القرن الثالث عشر ، حيث صارت النساء تخفف منه إلى أن صار ، كما هو الآن ، نسيجاً خفيفاً يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد . ولكن بقي بعد ذلك بزمن في اسبانيا وفي بلاد أمريكا التي كانت تابعة لها »[٤٦] .

ثم سار ـ في « تحرير المرأة » ـ مواصلاً موقفه الفكري الجديد ، فنفى أن يكون هذا الحجاب تنفيذاً لتعاليم الاسلام ، فهو « عادة » لا « شرع » . . فقال : « . . ان

---

(٤٦) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٤٤ .

الأوامر الالهية يجب الاذعان لها دون بحث ولا مناقشة ولكننا لا نجد نصاً في الشريعة يوجب الحجاب، على هذه الطريقة المعهودة، وإنما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين. والدين براء منها».[47].

ثم رأيناه يطلب موقفاً وسطاً، لا هو تبرج الغرب ومغالاته في عرض مفاتن المرأة، ولا هو الحجاب الشرقي ومنع اختلاط الرجال بالنساء، فيقول: «ان الغربيين قد غلوا في إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة، ولا ترضاه عاطفة الحياء، وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجل.. وبين هذين الطرفين وسط، هو الحجاب الشرعي، وهو الذي أدعو إليه»[48].

ومعروف أن الحجاب الشرعي لا علاقة له بمنع الاختلاط، إذ هو يعني ستر جسم المرأة ومفاتنها، عدا الوجه والكفين.. وبعد أن كان قاسم أمين يدافع - في «المصريون» - عن المجتمع الانفصالي، ويراه التنفيذ لتعاليم الدين الاسلامي، أخذ يهاجم هذا المجتمع الانفصالي، ويستنكر إمكانية ممارسة المرأة لواجباتها ومهماتها في الحياة طالما

---

(٤٧) المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٥.

(٤٨) المصدر السابق، جـ٢ ص ٤٣.

ساد الانفصال بين الجنسين في المجتمع ، إذ « كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها إن كانت فقيرة ؟! . . ان الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين ، كما نشاهده في الخادمات والعاملات وسكان القرى ، حتى من أهل الطبقة المتوسطة ، بل وبعض أهل العلياء من أهل البادية والقرى ، والكل مسلمون ، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه في أهل المدن ! »(٤٩) .

وبعد أن كان الاختلاط عنده شراكاً يستخدمها الرجل للايقاع بالمرأة في حبائل الحب والعشق والمتعة ، أخذ ينفي هذا الفهم السطحي ، ويرى قطاعات المجتمع التي يلعب الاختلاط والتحرر في حياتها دوراً إنتاجياً ونضالياً في سبيل العيش ، ويدرك رقي أخلاق هذه القطاعات حتى عن الشرائح التي تتستر بمباذلها خلف الحجاب ! فكتب مقرراً « ان نساء العرب ونساء القرى المصرية ، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا تقريباً ، أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن اللائي لا يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس في المفاسد . وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التي تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة ! »(٥٠) .

---

(٤٩) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٤٨ .

(٥٠) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٥٩ .

هكذا حسم القضية هذا الحسم الجديد !

وبعد الصورة التي قدمها ـ في « المصريون » ـ للمرأة الأوروبية والغربية ، صورة العاشقة الغانية ، والفريسة التي لا تلبث أن تستسلم ، سريعاً أو بعد زمن ، لاغراء الرجل الساعي لاقتناصها ، عاد قاسم أمين عن رأيه هذا في نساء الافرنج ، فرأى أنهن « يحافظن على ظواهرهن ، على العموم » .. [٥١] وأثنى على تمتع المرأة الأمريكية بحريتها ، وتحدث بإعجاب عن الاختلاط هناك « فنساء أمريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعاً بالحرية ، وأكثرهن اختلاطاً بالرجال ، حتى أن البنات في صباهن يتعلمن مع الصبيان في مدرسة واحدة ، فتقعد البنت بجانب الصبي لتلقي العلوم ! » [٥٢] .

ومع هذا الاختلاط في الغرب ، نهضت المرأة ، ونهضت الأمة : « فكلٌ مطلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك في أنهن يأتين من الأعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه ! » [٥٣]

تلك هي قضية الحجاب .. وموقف قاسم أمين منها .. موقفه القديم كما صوره في كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م ،

---

(٥١) المصدر السابق، جـ٢ ص ٣٩.

(٥٢) المصدر السابق، جـ٢ ص ٥٩ .

(٥٣) المصدر السابق، جـ٢ ص ٨٠.

وموقفه الجديد ، والمناقض جذرياً لموقفه القديم ، والذي عرضه في كتابه « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م .

* * *

تقييد الطلاق

والقضية الثانية التي نقدمها مثلاً حياً وواضحاً للتطور الفكري الذي مر به قاسم أمين ، هي قضية الموقف من « الطلاق » . . وهل هو حق مطلق للرجل ؟ أم أن الأمر يستدعي تقييد هذا الحق ووضع الضوابط على هذا الاطلاق ؟

ذلك أن قاسم أمين ، في كتابه « المصريون » ، يدافع عن بقاء الحرية الكاملة ، وغير المقيدة ، للرجل ليوقع الطلاق ويفصم عرى العلاقة الزوجية عندما يقرر ذلك ويراه السبيل لما يتصوره صواباً . . وهو هنا يستنكر الأراء الاصلاحية التي يرى أصحابها ضرورة جعل الطلاق بحكم من القاضي بعد بذله الجهد ـ بواسطة التحكيم ـ لإصلاح ذات البين . . وهو يصور موقفه هذا عندما يقول :

« . . غالباً ما يكون الطلاق علاجاً أسوأ من الداء ، غير أن له ، كجميع الأدوية ، موهبة الشفاء في بعض الأحيان ، انه عملية بتر يذعن لها المصاب كارهاً دائماً ، مطلقاً صرخات الألم ، ولكنها مع ذلك تنقذه من الموت .

« وقد رأى المشرع الاسلامي من الضروري ترك هذه المسألة الخطيرة في يد الزوجين يتصرفان فيها بحريتهما ، فالمسألة تتعلق بحياتهما وبسعادتهما وبمستقبلهما ، وذلك أهم ما يمكن أن يكون ركيزة لفكرهما وهما يتوليان بأنفسهما مهمة إصدار الحكم على مصيرهما الذاتي .

اني لا أفهم أن يقيم الانسان دعوى ليحصل على الطلاق فتلاقي الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضي ، كالتنازع على برميل نبيذ أو جدار مشترك . أية محكمة تلك التي تزعم قدرتها على توجيه قلبي وشد وثاقه ، وهو المتقلب كثير النزوات ؟! وماذا يعرف هؤلاء القضاة ؟! ان موضوع هذه القضية هو شخصيتي الصعبة المعقدة التي تحتاج عدة سنوات من عبقري مثل (زولا) لكي يفهمها ويحللها ويحكم عليها ! » (٥٤) .

ولكن قاسم أمين يعود عن موقفه هذا ، ويتبنى الرأي المعاكس لرأيه الذي أسلفناه ، وان يكون بالتدريج ، فيبدأ بالشكوى من مضار الاسراف القائم والحاصل في استخدام الرجال لحقهم المطلق في الطلاق .. فهو قد أصبح « أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة » .. ومع ذلك « اعتاد أهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة جداً ، لا يمكن أن يرضاها

---

(٥٤) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٨٩، ٢٩٠.

الشرع أو يسلم بها العقل . . . »[55] .

ثم بعد ذلك يحسم الموقف ، فيدعو إلى تقييد الاطلاق الذي يتمتع به الرجل في إيقاع الطلاق ، وينقض ، في « تحرير المرأة » ، منطقه في « المصريون » ، فتتبدل المواقف ، ويرفع خصومه في سنة ١٨٩٩ م نفس حججه هو في سنة ١٨٩٤ م !

نعم . . يطلب قاسم أمين ، في « تحرير المرأة » ، أن توضع القيود على الطلاق . . وذلك من مثل :

١ ـ قيد الارادة الواضحة والنية الحقيقية على فصم عرى الزوجية .

٢ ـ قيد الاشهاد على وقوع الطلاق .

٣ ـ قيد التحكيم الذي حدده القرآن بهدف محاولة الاصلاح .

٤ ـ قيد جعل ايقاع الطلاق من اختصاص القضاء .

وفي هذا الأمر يكتب ليقول :

« . . . يجب أن يفهم ان الطلاق إنما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج ، وهذا يفرض حتماً وجود نية حقيقية عند الزوج وإرادة واضحة في أنه إنما يريد الانفصال من زوجته . . وان لمريد الاصلاح أن يبحث في كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت ، خصوصاً إذا كان قصده محو فساد

(٥٥) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٢٥.

عظيم صار ضرره عاماً . . فلم لا يجوز ، مع ظهور الفساد في الأخلاق والضعف في العقول وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الاشهاد شرط في صحة الطلاق ، كما هو شرط في صحة الزواج ، كما ذكره « الطبرسي » ، وكما تشير إليه الآية الواردة في سورة الطلاق ، حيث جاء في آخرها : ﴿ واشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ [٥٦] . أليس هذا أمراً صريحاً بالاشهاد ، يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وإمساك وفراق ؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطلاق واقعة حال مشهور لدى العموم ليسهل إثباته ؟ لم لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحاً ؟ نظن أن في الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ، ورعاية لمصلحة الناس ، وما يدرينا أن الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل إليه الأمة في زمان كزماننا هذا ، فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاماً لنا نرجع إليه عند مسيس الحاجة ، كما هو شأننا اليوم » .

ثم يستطرد قاسم أمين ليصوغ مشروعاً بقانون يقترحه على الحكومة لتقييد الطلاق ، فيقول :

« . . بل ان أرادت الحكومة أن تفعل خيراً للأمة فعليها أن تضع نظاماً للطلاق على الوجه الآتي :

---

(٥٦) سورة الطلاق، آية ٢ .

المادة الأولى : كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضي الشرعي أو المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ، ويخبره بالشقاق الذي بينه وبين زوجته .

المادة الثانية : يجب على القاضي أو المأذون أن يرشد الزوج إلى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله ، وينصحه ، ويبين له تبعة الأمر الذي سيقدم عليه ، ويأمره أن يتروى مدة أسبوع .

المادة الثالثة : إذا أصر الزوج ، بعد مضي الأسبوع ، على نية الطلاق ، فعلى القاضي أو المأذون أن يبعث حكماً من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة ، أو عدلين من الأجانب ان لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما .

المادة الرابعة : إذا لم ينجح الحكمان في الاصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريراً للقاضي أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضي أو المأذون للزوج في الطلاق .

المادة الخامسة : لا يصح الطلاق إلا إذا وقع أمام القاضي أو المأذون ، وبحضور شاهدين ، ولا يقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية . . وليس في هذا تعدٍ على حق من حقوق الزوج ، وإنما هو وسيلة للتروي والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها ، بل ولمصلحة الزوج نفسه ! . . ان وضع

الطلاق تحت سلطة القاضي ادعى إلى تضييق دائرته وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج »[٥٧] .

هكذا استدار فكر قاسم أمين دورة كاملة ، فتبنى سنة ١٨٩٩ م فكر خصومه في سنة ١٨٩٤ م ، كما تبنى خصومه في سنة ١٨٩٩ م فكره هو في سنة ١٨٩٤ م ؟!

تعدد الزوجات

والقضية الثالثة التي نقدمها ضمن الأمثلة والأدلة على تطور فكر قاسم أمين هي موقفه من « تعدد الزوجات » .. فعلى الرغم من أن كلا من كتابيه « المصريون » و « تحرير المرأة » يشترط قيام الضرورة لجواز التعدد والتزوج بأكثر من زوجة واحدة ، إلا أنه في « تحرير المرأة » كان أكثر ميلاً لتغليب منع التعدد على إباحته وتجويزه ، كما كان كذلك أكثر تنبيهاً على مضاره ومخاطره .. بل لقد تحدث في « المصريون » عن أمور نفى أن تكون مخاطر اجتماعية سببها التعدد ، ثم عاد في « تحرير المرأة » فرآها خطراً يجب لأجلها منع هذا النظام .

فهو في « المصريون » يتحدث عن موقف الشرع الاسلامي من التعدد فيذهب إلى أن الشرع الاسلامي يتحدث

---

(٥٧) المصدر السابق، جـ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٤ .

إلينا ، عن التعدد ، قائلاً : « من الناحية المبدئية تزوجوا بامرأة واحدة ، انني أنصحكم بذلك من أجل راحتكم ، فإذا حدث حادث حطم ، لسبب من الأسباب ، حياتكم الزوجية ، فتستطيعون أخذ زوجة ثانية ، ويمكن لكم إن ساء حظكم اتخاذ زوجة ثالثة أو رابعة . ولكن ، فليكن معلوماً لكم انني لا أبيح لكم ذلك إلا إذا كنتم مضطرين إليه وخاضعين لضرورات محددة . . وانني أفرض عليكم . . أن تعاملوا هؤلاء النساء جميعاً ، في كل الأمور ، بعدالة كاملة ومساواة دقيقة ، وأن تكون هذه النسوة جميعاً زوجاتكم على نفس المستوى ، وأن تقوموا بكل نفقاتهن ، وأن يكون الأطفال الذين يضعنهن أولادكم ، فتسهرون على تعليمهم جميعاً بنفس الاهتمام واليقظة . . فإذا أحسستم القدرة على أداء هذه الواجبات العديدة والمتنوعة ، وإذا وجدتم أنفسكم في حالة ضرورة تحتم الخضوع لها فتزوجوا بأكثر من واحدة ، وإلا فلا تأخذوا إلا زوجة واحدة ، وهذا أفضل . . » .

كما يعرض قاسم أمين ، في هذا الكتاب ، لرأي الذين ينادون بمنع التعدد أو تقييده تقييداً شديداً ، لأنه قد أصبح مصدراً لشيوع العداوة والبغضاء بين الأخوة المولودين من أمهات عدة ، فيرفض هذه الحجة ، ويقول « يتخيل الناس ، بصفة عامة ، أن الأطفال الذين يولدون من أمهات مختلفة يحدث لهم ، بالضرورة ، أن يتبادلوا الكراهية ، وأن يتعاركوا

صبحاً ومساءً ، ومع ذلك فإن هذا لا يحدث ، والمسألة مسألة تعود !! » [٥٨] .

وبعد ذلك نرى فكره يتطور عندما يعرض القضية في « تحرير المرأة » تطوراً ملحوظاً . . فهو يقول : « . . لا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة ، اللهم إلا في حالة الضرورة المطلقة . . وغاية ما يستفاد من آية التحليل : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾[٥٩] . . - إنما هو حل تعدد الزوجات إذا امن الجور . وهذا الحلال ، كسائر انواع الحلال ، تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى . من المنع والكراهية وغيرها ، بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح ، فإذا غلب على الناس الجور بين الزوجات ، كما هو مشاهد في أزماننا ، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد في العائلات ، وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها ، وقيام العداوة بين اعضاء العائلة الواحدة ، وشيوع ذلك إلى حد يكاد يكون عاماً ، جاز للحاكم ، رعاية للمصلحة العامة ، أن يمنع تعدد الزوجات ، بشرط أو بغير شرط ، على حسب ما يراه موافقاً لمصلحة الأمة . . . » [٦٠] .

---

(٥٨) المصدر السابق، جـ ١ ص ٨٥ ـ ٨٧.

(٥٩) سورة النساء، آية ٣.

(٦٠) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٩٢، ٩٣.

فهو هنا يتحدث عن قيام فساد في العائلات .وعداوة بين أعضائها بسبب التعدد ، وهو ما كان ينكره من قبل .. وهو هنا يتحدث عن جواز إصدار تشريع يمنع التعدد مطلقاً إذا غلبت المفاسد الناشئة عنه في المجتمع ، ولا يترك القضية برمتها للموقف الفردي والتصرف الفردي كما كان عليه موقفه في كتاب « المصريون » .

وهو تطور ملحوظ في فكره حيال هذا الموضوع .

هكذا أصاب التطور فكر قاسم أمين ما بين سنة ١٨٩٤ م ، عندما أصدر رده على دوق داركور وما بين سنة ١٨٩٩ م عندما أصدر « تحرير المرأة » .. وهو التطور الذي سقنا عليه الأدلة ، وقدمنا النماذج والأمثلة التي تبرهن عليه فيما تقدم من صفحات .

لكن ، يبقى سؤال هام لا بد من الاجابة عليه .. وهو :

لماذا كان هذا التطور الفكري ، عند قاسم أمين أساساً وبالدرجة الأولى ، في تحديد رأي الشرع الاسلامي من القضايا التي كانت مثارة يومئذ بين الباحثين في قضايا الأسرة والمرأة وشؤونها ؟ وبالتحديد في قضايا : الحجاب ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ؟

اننا لا نلحظ تطوراً فكرياً بارزاً في آرائه الأخرى ، مثل

آرائـه في : الأدب ، واللغـة ، والسيـاسـة ، والاجتمـاع ، والاقتصاد ، والمنهج ، والحضارة .. الخ .. الخ .. الخ . والذي لاحظناه هو أن التطور الملحوظ كاد أن يقتصر على الأراء التي حواها كل من « المصريـون » و « تحريـر المرأة » باعتبارها رأي الشرع الاسلامي في مشاكل الأسرة وعلاجها .

وأهمية هذا السؤال ، ومن ثم أهميـة الاجابـة عليه ، تكمن في ذلك الرأي والموقف الذي أبديناه من قبل عندما كتبنا الدراسة التي قدمنا بها (للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) فقلنا يومها : اننا مع القائلين بأن للإمام محمد عبده مشاركة في تأليف كتاب « تحرير المرأة » ، ولقد قدمنا أدلتنا التي تثبت أن الفصول التي عرضت لرأي الشرع في قضايا الحجاب والزواج والطلاق وتعدد الزوجات ، بهـذا الكتاب ، هي للأستاذ الإمام ، وليست لقاسم أمين .

لقد رأينا ذلك ، وكتبنا عنه صفحات أثبتناها كذلك في التقديم للأعمال الكاملة لقاسم أمين .. ونحن نود أن نضيف هنا :

ان هذه الدراسة التي قدمناها ، في هذا الفصل ، عن التطور الفكري لقاسم أمين ، هي دليل جديد يدعم ذلك الرأي الذي سبق لنا أن قررناه .

ذلك ان جوهر الحجة التي قـدمناهـا ، ودللنا عليهـا

يومئذ ، هو أن الفكر الاسلامي المتخصص الذي قدم في هذه الفصول هو من صنع إمام مجتهد في الاسلام ، ولم يكن في ذلك العصر أقدر من الشيخ محمد عبده على الادلاء بهذه الاجتهادات وإصدار هذه الأحكام ، وان هذا الميدان ليس ميدان قاسم أمين .

كما أن جوهر حجة خصوم هذا الرأي كان ان قاسم امين ليس غريباً عن الشريعة الاسلامية ومباحثها ، فلقد درسها كرجل قانون ضليع .

ولكن .. بعد دراستنا هذه عن تطوره الفكري .. لنا أن نسأل : هل درس قاسم الشريعة بين سنتي ١٨٩٤ م و١٨٩٩ م ؟! أم قبل ذلك بكثير؟ ان المعلوم أنه تخرج من مدرسة الحقوق سنة ١٨٨١ م ، وأنهى دراسته القانونية في فرنسا سنة ١٨٨٥ م .. ومنذ ذلك التاريخ وهو يمارس وظائف القضاء ، في النيابة أو مستشاراً في محكمة الاستئناف .. فإذا ما جاء في سنة ١٨٩٤ م وقدم لنا في كتابه « المصريون » تلك الآراء التي قال عنها أنها آراء الشرع الاسلامي في الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات ، كنا مطالبين بأن نقول : ان هذه ثمرة دراسة قاسم أمين للشرع الاسلامي ، وفهمه له في تلك المباحث .. وإذا ما قدم لنا في « تحرير المرأة » آراء الشرع الاسلامي ، في هذه القضايا ، على نحو مناقض لما في « المصريون » كان لنا ، إن لم يكن علينا ، أن نؤيد ونزكي

قول من قال : ان الفصول التي حواها « تحرير المرأة » عن رأي الشرع في هذه القضايا إنما هي للأستاذ الإمام محمد عبده ، أسهم بها مع قاسمٌ أمين في تأليف هذا الكتاب .

ومن هنا نستطيع أن نقول : ان هذه الصفحات التي قدمناها عن التطور الفكري لقاسم أمين ، هي دليل جديد يضاف إلى الأدلة التي سبق أن قدمناها ونحن نقدم لأعمال محمد عبده على وجهة النظر هذه فيما يتعلق بكتاب « تحرير المرأة » . . والفضل في إضافة هذا الدليل الجديد يعود ، في الأساس ، إلى استنادنا في دراستنا هذه ، التي نقدمها ، على كتاب « المصريون » ، الذي ترجم عن الفرنسية للمرة الأولى ، والذي كان الدليل الأول على هذا التطور الفكري القائم في آثار قاسم أمين .

حرية المرأة

[هناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية .. فشكل الحكومة يؤثر في الآداب المنزلية ، والآداب المنزلية تؤثر في الهيئة الاجتماعية .. ففي الشرق نجد المرأة في رق الرجل ، والرجل في رق الحكومة .. وحيثما تتمتع النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالحالتان مرتبطتان ارتباطاً كلياً .

وافتقار المرأة المسلمة إلى الاستقلال بكسب ضروريات حياتها هو السبب الذي جر ضياع حقوقها ، فلقد استأثر الرجل بكل حق ، ونظر إليها نظرته إلى حيوان لطيف ، يكفيه لوازمه كي يتسلى به !! ..] .

قاسم أمين

ان التعميم في الحكم على الميراث العربي والشرقي فيما يتعلق بحقوق المرأة والنظرة إليها وتقييم دورها في المجتمع وعلاقتها بالرجل ، ذلك الميراث الذي واجهه قاسم أمين ومعاصروه عندما فكروا في دخول هذا الميدان من ميادين الاصلاح الاجتماعي . . ان التعميم في الحكم على هذا الميراث هو خطأ كبير . .

ذلك أن تراث العرب والشرق قد اشتمل على تيارين رئيسيين تمايزا إلى حد كبير في هذا الموضوع . . فحيثما كانت هناك حركات فكرية عقلانية أو ثورية أو تقدمية ، وجدنا للمرأة في صفوفها دوراً ملحوظاً ، نسبياً ، ووجدنا في فكر هذه الحركات والتيارات حديثاً مشوباً بالكثير من الاحترام للمرأة ودورها في الحياة . . نجد ذلك عند المعتزلة ، والخوارج ، وبعض فرق الشيعة .

وحيثما كانت السيادة للفكر المتخلف ، والمهام الأولى

للحركات الفكرية هي التبرير لمظالم الحكم واضفاء الشرعية على تصرفات المستبدين بالسلطة والسلطان كان الاحتقار للمرأة ، والنظر إليها كسلعة من سلع المتعة ، ومخلوق جميل وضعيف قد خلقه الله كي تتزين به القصور ويستمتع به الرجال . .

ولما كانت الغلبة والسيادة ، ان في الزمن طولاً أو في الصورة قوة وعلواً ، كانت من نصيب ذلك المفهوم الثاني والتقييم الأخير ، فلقد أصبحت ألوان تراثنا الفكري مليئة بكل ما يحقر المرأة ويغض من شأنها ، ورسخ ذلك في فكرية المجتمع الشرقي ، خصوصاً بعد أن طال ليل العصور « المملوكية ـ العثمانية » ، حتى لقد غابت من الميراث الفكري الذي كان الناس يتداولونه أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تلك القسمة الأخرى في تراثنا ، التي تنصف المرأة وتضع اعتباراً لدورها الايجابي في الحياة .

ومن هنا نستطيع أن نتخيل : أي ميراث فكري كان يطالعه جيل قاسم أمين عن المرأة وحظها من الحرية ونصيبها من المساواة ؟! وهذا التخيل أمر ضروري ، لا لتقييم العمل الفكري والتطبيقي الذي بذله وأنجزه قاسم أمين ، في ذلك الميدان ، التقييم الذي يستحقه فحسب ، بل ولادراك : لماذا كانت أحلام قاسم أمين وجيله في هذا الميدان متواضعة جداً ،

عندما ننظر لها الآن في ضوء ما أنجزته حركة تحرير المرأة فعلاً ، فضلاً عن الآمال التي لا زالت تسعى في سبيل تحقيقها على هذا الدرب الطويل .

ونحن نستطيع أن نكثف ملامح تلك الفكرية المتخلفة التي ورثها ذلك الجيل ، في هذا الموضوع ، بالاشارة إلى نصين يعبر كل منهما عن فكرة وموقف حددهما المجتمع من المرأة .

أولهما : يعبر عن المقولة القائلة « بأن موت المرأة خير من حياتها » ، وأن بطن الأرض أكرم لها وللحياة من ظهرها ! ويعبر عن هذه المقولة أبو بكر الخوارزمي (٩٣٥ - ٩٣٣ م) عندما يكتب إلى رئيس « بهراء » معزياً في وفاة ابنته ، فيقول :

« ... ولولا ما ذكرته من سترها ، ووقفت عليه من غرائب أمرها ، لكنت إلى التهنئة أقرب من التعزية ! فإن ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمات ! ونحن في زمان إذا قدم أحدنا فيه الحرمة ، فقد استكمل النعمة ، وإذا زف كريمة إلى القبر ، فقد بلغ أمنيته من الصهر ! قال الشاعر :

ولم أر نعمة شملت كريماً كنعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر :

تهـوى حيـاتي وأهـوى مـوتهـا شفقـا
والمـوت أكـرم نـزال عـلى الحـرم

وقال آخر :

وددت بـنـيـتي ووددت أني وضعت بنيتي في لحد قبري

وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات بقـاء البنين ومـوت البنات

وقال آخر :

سميتها إذ ولدت : تمـوت والقبر صهر ضامن وبيت[61]

وثانيهما : ـ أي ثـاني النصين ـ هـو المعبر عن سيـادة المجتمـع الانفصالي ، وصـرامة هـذا الفصل بـين الـرجـال والنساء . ويعبر أبو العلاء المعري (٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م) عن هذه المقولة عندما يقول :

إذا بـلـغ الـولـيـد لـديـك عـشـرا
فـلا يـدخـل عـلى الحـرم الـولـيـد
وان خـالـفـتـني وأضـعـت نـصـحـي
فـأنـت ، وإن رزقت حـجـي ، بـلـيـد

---

(٦١) « الهلال » تأبين قاسم أمين . انظر مقدمة ناشر « أسباب ونتائج » ، ص ٤، ٥ .

إلا أن النساء حبال غي

بهن يضيع الشرف التليد ! (٦٢)

تلك كانت مواريث الفكر ، عن المرأة ، التي واجهها قاسم أمين وجيل قاسم أمين .. ومن ثم فنحن نستطيع أن نبصر عمق قاسم أمين عندما ربط بين تخلف المرأة وعبوديتها وبين سيادة النظم المستبدة ، في فترات طويلة ، حياة الشرق ومجتمعاته .. فلا الأسلام ، ولا طبيعة الأشياء ، ولا خصائص ضعف المرأة وقصورها ، هي التي ميزت بين الرجال وبين النساء وقسمت شؤون الحياة بينهم تلك القسمة غير العادلة ، وإنما هو الاستبداد الذي جعل من المرأة إحدى فرائسه ، فكبلها بالقيود والأغلال .. ومن ثم فإن تحررها مرتبط بتحرر الرجل من الاستبداد ، أي بتحرر المجتمع ككل .. وهو يعبر عن هذه الفكرة الهامة عندما يتحدث عن « ان مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة ، والحكومة التي تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها .. فهناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية في كل بلد ، ففي كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق حط بنفسه وأفقدها وجدان الحرية ، وبالعكس ، في البلاد التي تتمتع فيها النساء بحريتهن

---

(٦٢) « لزوم ما لا يلزم » ، جـ ١ ص ٢٤٧ ، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٢٤ .

الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالحالتان مرتبطتان ارتباطاً كلياً .

« وآن للسائل أن يسأل : أي الحالتين أثرت في الأخرى ؟ نقول : إنهما متفاعلتان ، وان لكل منهما تأثيراً في مقابلتها ، وبعبارة أخرى : إن شكل الحكومة يؤثر في الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر في الهيئة الاجتماعية .

أنظر إلى البلاد الشرقية ، تجد أن المرأة في رق الرجل ، والرجل في رق الحاكم ، فهو ظالم في بيته مظلوم إذا خرج منه ! ثم أنظر إلى البلاد الأورباوية ، تجد أن حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية ، فارتفع شأن النساء فيها إلى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل ! » [٦٣] .

وحقيقة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، والعمق أيضاً ، وعاها قاسم أمين ، عندما أدرك أن افتقار المرأة إلى « الاستقلال الاقتصادي » ، وبعدها عن ميادين العمل المنتج في المجتمع جعلها تابعة وخاضعة لمن يسد رمقها ويضمن لها مقومات الحياة وضرورياتها . . وإدراك قاسم أمين لهذه الحقيقة هو امتداد للمنهج الاجتماعي الذي استخدمه في دراسة المجتمع وتفسير التاريخ . . وهو يعبر عنها عندما يتحدث عن

---

(٦٣) «الأعمال الكاملة لقاسم أمين»، جـ ٢ ص ١٢٥، ١٢٦.

عمل المرأة ودوره في تحريرها ، إذ « لو تبصر المسلمون لعلموا أن إعفاء المرأة من أول واجب عليها ، وهو التأهل لكسب ضروريات الحياة بنفسها ، هوالسبب الذي جر ضياع حقوقها ، فإن الرجل لما كان مسؤولاً عن كل شيء استأثر بالحق في التمتع بكل حق ، ولم يبق للمرأة حظ في نظره إلا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلاً منه ، على أن يتسلى به ! »[٦٤] .

ذلك هو الميراث الفكري ، المعبر عن الواقع العملي ، أي وجها العملة المجسدة لوضع المرأة في المجتمع الشرقي عندما نادى بتحريرها قاسم أمين .

وذلك هو تقييمه للأسباب الجوهرية لذلك الوضع المتخلف الذي كانت عليه النساء في مجتمعه الذي عاش فيه .

* * *

ونحن نستطيع ، دون تفصيل يطيل بنا الحديث ، ان نستدعي إلى الأذهان صورة امرأة ذلك العصر ، كما رآها قاسم أمين .

فهي ، اجتماعياً ، لا وجود لها لعزلتها عن المجتمع وقبوعها خلف جدران الحريم .. وكما يقول قاسم أمين : فإنه « ليس بين الأمهات إلا عدد قليل جداً يعرف القراءة

---

(٦٤) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣ .

والكتابة ، وليس واحدة لها المام ، ولو سطحياً ، بمقدمات أي علم من العلوم أو فن من الفنون ، وهي فوق ذلك جاهلة بكل أحوال الدنيا ، ولا تدري شيئاً من المعاملات والتجارة ولا من نظامات وقوانين البلاد التي تسكنها ، فضلاً عن الالمام بأي شيء من أحوال البلاد الأخرى ، وهي مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا تجمعه بعالم الرجال فكر أو عمل ، وأمة داخل الأمة لها أخلاقها وعوائدها ومعتقداتها . وفي الحقيقة : انهن آثار عتيقة لأجيال مضت وبقايا أزمنة بعيدة . . باقيات على ما كن عليه في تلك الأوقات ! » (٦٥) .

ولم يكن حال المرأة داخل المنزل بالخير كله ، فلم تكن ، كما قد يتوهم البعض ، ملكة لمملكة المنزل ، وإنما كانت مخلوقاً ضعيفاً قد أعد ويعد للاستمتاع أولاً وقبل كل شيء . . وعن حالتها المعنوية هذه يقول قاسم أمين :

« وأما من الناحية المعنوية ، فهي - (أي المرأة) - مخلوق متكاسل ، ذات طبيعة تأملية ، وبعيدة عن الفاعلية ، تكثر الحديث والضحك ، تحب دينها ، لكنها لا تمارسه ! ليس لها مثل أعلى ، وتتأقلم مع الحياة الواقعية ، وهي زوجة نموذجية ، وأم حانية ، لكنها محدودة المواهب في التدبير المنزلي ! » .

فهي مخلوق ذبلت مواهبه وإمكانياته من طول تعطلها

---

(٦٥) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٢٧ .

وحرمانها من التدرب على ممارسة ما خلقها له الخالق سبحانه !
ولقد بقيت لها من هذه المواهب والامكانيات ما كان متعلقاً منها « بالشكـل » ، فهي على قـدر لا بأس بـه من الجمال « يتجلى على وجه الخصوص في نسب أعضائها . ومتانة الجسد وتماسكه ، كم تنتشي العيون التي تتطلع إلى فلاحة جميلة تمشي مستقيمة بارزة النهدين مثقلة القوام ممتلئة العينين بالأحلام ، طويلة تقريباً ، في كفيها وقدميها دقة رائعة !. . أما ما تتميز به حقاً فهو عيناها الواسعتان السوداوان الحانيتان حتى ليحسبها المرء عيني « ملاك » ، والمعبرتان ، حتى ليفهمها المرء قبل أن تتحدث هي ! »(٦٦) .

* * *

وعلى عظم الضجة وضخامة الرفض اللذين قـوبلت بهما صيحات قاسم أمين ، فإن مطالب الرجل كانت متواضعة ، بل شديدة التواضع ، إذا ما قيست بما يجب لتحرير المرأة حقاً من انجازات واصلاحات . ولكن هذه المطالب كانت تمثـل ثورة حقيقية وتغييراً جذرياً في فكر المجتمع وأعرافه بالقياس إلى واقع المرأة الذي أشرنا الى الملمح العام من ملامحه .

ففي التعليم : لم يـطلب قاسم أمـين مساواة بـين المـرأة والرجل في جميع مراحله . . بل طلب لها فقط المساواة به في

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٧٨، ٢٧٩.

التعليم الابتدائي ؟!.. وعبر عن مطلبه المتواضع ،هذا عندما قال :

« ... ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل في التعليم ، فذلك غير ضروري ، وإنما أطلب الآن ، ولا أتردد في الطلب ، أن توجد هذه المساواة في التعليم الابتدائي على الأقل ، وأن يعتنى بتعليمهن إلى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين » .

وهو لا ينسى في حديثه عن تعليم المرأة أن يميز بين التعليم الجاد الذي يطلبه لها ، وهو الذي يصبح في حياتها قوة تغير سلبيتها فتجعلها ايجابية ، ويطورها بتطور مجتمعها ، وبين ذلك التعليم الذي ليس له من التعليم سوى المظهر والقشور .. ولذلك فهو ينتقد ما كان موجوداً يومها من « تعليم » تتلقاه المرأة ، كي تظل به « متعة » أكثر جودة .. فيقول :

« ... أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فأراه غير كاف ، لأنهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغة أجنبية ، وشيئاً من الخياطة والتطريز ، والموسيقى ، ولا يتعلمن من العلوم ما يستفدن منه فائدة يلتفت إليها ، وربما زادتهن تلك المعارف غروراً بأنفسهن ، فتظن الواحدة منهن أنها متى عرفت أن تقول : نهارك سعيد ، باللغة الفرنساوية ، فقد فاقت أترابها ، وارتفع شأنها ، وسما عقلها ، ولا تتنازل بعد ذلك

لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية ، فتقضي حياتها في تلاوة أقاصيص وحكايات قلما تفيد إلا في إثارة صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالماً لطيفاً تسرح فيه طرفها وهي شاخصة إلى دخان السيجارة التي تقبض عليها !

أكثر ما تعرفه المرأة ، التي يقال الآن أنها متعلمة ، هو القراءة والكتابة ، وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهي إليها ، وما بقي من معارفها فهي قشور تجمعها الحافظة في ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شيء . أين هذه القشور من الحقائق العلمية التي يتغذى منها العقل ويتقوى على مطاردة الوهم ؟! »[٦٧] .

ذلك هو حال تعليم من كن يتعلمن يومئذ من البنات . . وهذا هو رأي قاسم في هذا التعليم . . ومطلبه في تعليم النساء .

* وفي الحجاب : لم يطلب قاسم سفور المرأة على النحو الذي كان عليه أمرها في أوروبا يومئذ ، ولا على النحو الذي وصل إليه أمرها هذه الأيام . . وهو كذلك لم يطلب إباحة خلوة المرأة بالرجل الواحد ، وهو غريب عنها ، ليس بمحرم لها . . وإنما طالب فقط بكسر أسوار عزلة المرأة عن المجتمع ، وتحريرها من الحجاب المعوق لها عن العمل وممارسة وظائفها

---

(٦٧) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٦، ٣٧.

العامة والطبيعية الضرورية ، وحبذ الوقوف بالحجاب عند ما هو شرعي منه وفق آراء الفقهاء ، ونادى بالاختلاط الذي تحتمه ضرورات العمل ومقتضياته في معترك كسب الرزق والحياة . . وعن هذا المطلب المتواضع يقول :

« ربما يتوهم ناظر أنني أرى الآن رفع الحجاب بالمرة ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فإنني لا أزال أدافع عن الحجاب ، وأعتبره أصلاً من أصول الآداب التي يلزم التمسك بها ، غير أنني أطلب أن يكون منطبقاً على ما جاء في الشريعة الاسلامية ، وهو على ما في تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا ، لما عرض عليهم من حب المغالاة في الاحتياط ، والمبالغة فيما يظنونه عملاً بالأحكام ، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة .

« والذي أراه في هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا في اباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعاً من المقتنيات ، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التي أعدت لها بمقتضى الفطرة الانسانية ، وبين هذين الطرفين وسط ، هو الحجاب الشرعي ، وهو الذي أدعو إليه . . . » [٦٨] .

---

(٦٨) المصدر السابق، جـ ٢ ، ص ٤٣ .

والحجاب الشرعي هو كشف المرأة وجهها وكفيها عند كل الفقهاء ، وأجزاء أخرى من بعض أطرافها الأخرى ، عند نفر منهم ، كما تحدث عن ذلك قاسم أمين .

* وفي العمل : تدرج موقف قاسم أمين وترقى تبعاً لتطوره الفكري ازاء تحرير المرأة . . وهو هنا قد مر بمراحل ثلاث :

١ - ففي البداية : وهي مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م كان يطلب تعليم المرأة ، ويطلب كذلك أن تظل في البيت ، خاصاً بها ومختصة به ، وينتقد اشتغالها ، لا « بالوظائف العمومية » ، بل « وبالأعمال المدنية » التي يقوم بها الرجال . . وهو في التعبير عن هذه الفكرة يقول :

« انني لا أرى الفائدة التي يمكن أن تجنيها النساء بممارسة حرف الرجال ، بينما أرى كل ما سوف يفقدنه ، فإن هذه الحرف سوف تجرفهن عن المهام التي يبدو أنهن خلقن من أجلها ، كما أن هذه الأعمال لن تجعلهن أكثر فائدة للمجتمع ، ولن تزيد من سحرهن ، بل على العكس من ذلك . ان مشهد الأم المتفانية يملؤني حناناً ، كما يحرك سروري منظر الزوجة التي تعنى ببيتها ، في حين اني لا أشعر بأية عاطفة حين أرى امرأة تهل علي في خطى الرجال ، ممسكة كتاباً في يدها ، وتهز ذراعي في عنف ، وهي تصيح بي : « كيف

حالك يا عزيزي ؟ » بل لعلي أشعر بشيء غيربعيد عن النفور .

هل السيدات المؤلفات والسياسيات ـ (ولست أتحدث إلا عمن اتخذن حرفة الأدب وتجارته) ـ هل هن حقيقة نساء ؟ وما هي أوجه الشبه بين هذه الكائنات اللاتي رأين كل شيء ، وقرأن كل شيء ، وفعلن كل شيء ، واللاتي لم تعد وجوههن تحمر ، وبين تلك الملائكة اللاتي ما يكدن يرسلن نظرة أو لفظة أو لمسة كف حتى تبتل عيوننا بالدمع وتفعم قلوبنا بالنشوة ؟! .

انني أحتقر ادعاء النساء وتحذلقهن ، ولكنني نصير متحمس لأخذ المرأة قدراً نسبياً من التعليم ، انني أنعي تربية النساء المصريات وسط الجهل المطلق ، يجب أن تعرف المرأة دائماً ما يكفي لكي تلقن أبناءها مبادىء الأخلاق والفضيلة ، ولتقدم لهم شرحاً علمياً للأشياء التي تحيط بهم ، يجب أن تعرف دائماً كيف تجيب ، دون أن تخطىء ، على تساؤلات الطفولة التي لا تنقطع [٦٩] . . .

٢ ـ وفي المرحلة الثانية : مرحلة كتاب « تحرير المرأة »سنة ١٨٩٩ م ، يبقى قاسم أمين على موقفه الرافض تولي المرأة « الوظائف العمومية » ، ولكنه يتطور خطوة فيطلب لها أن تمارس ، مثل الرجل « جميع الأعمال المدنية » .. علاوة على

(٦٩) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

شؤونها الخاصة . . ويعبر عن موقفه الجديد هذا بقوله :

« ان الناظر في الأحوال التي فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة ، مثل الخلافة والامامة ، والشهادة في بعض الأحوال ، لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها ، وان الشارع لم يراع في هذه المسائل القليلة إلا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في العائلة ، وحصر الوظائف العمومية في الرجال ، وهو تقسيم طبيعي جرى على مقتضاه ، إلى الأن ، التمدن في أوربا - (لم تكن المرأة الأوروبية قد نالت حقوقها السياسية بعد) - ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها إلى أعلى مرتبة تستحقها ، وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التي خولتها الشريعة الاسلامية إلى المرأة في جميع الأعمال المدنية - ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل - يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التي تؤدي إلى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق »[٧٠] .

وقاسم أمين يرى أهلية المرأة المصرية ، إذا تعلمت ، لاجادة كل « الأعمال المدنية » التي تجيدها المرأة الغربية . . كما يرى في ذلك عاملاً هاماً ينمي ثروة المجتمع ويدفع بتطوره إلى الامام ، فالمرأة عندنا طاقة معطلة واستثمار غير مستغل ، بل

---

(٧٠) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ .

لقد أصبحت عالة على ثمرة عمل الرجال . . « فلأن النساء ، في كل بلد ، يقدرن بنصف سكانه ، على الأقل ، فبقاؤهن في الجهل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة وفيه من الضرر الجسيم مالا يخفى .

ولا شيء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل ، مثل الغربية ، بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة ، إلا جهلها وإهمال تربيتها . ولو أخذ بيدها إلى مجتمع الاحياء ، ووجهت عزيمتها إلى مجاراتهم في الأعمال الحيوية ، واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفساً حية فعالة تنتج بقدر ما تستهلك ، لا كما هي اليوم عالة لا تعيش إلا بعمل غيرها ، ولكان ذلك خيراً لوطنها ، لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه . . »[٧١] .

٣ ـ وفي المرحلة الثالثة : من تطوره الفكري ، ازاء هذه القضية ، مرحلة « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م . يبقى قاسم أمين على موقفه من قضية اشتغال المرأة « بالأشغال العمومية والوظائف العامة » أي العمل السياسي ووظائفه العليا ، ولكنه يتقدم فكرياً عن ذي قبل ، عندما يعلل للفروق القائمة بين الجنسين ، والتي أهلت الرجل ، دون المرأة ، لهذه الوظائف السياسية العليا ، فبعد أن كان يرى ذلك تقسيماً فطرياً وأبدياً

---

(٧١) المصدر السابق، جـ٢ ص ٢٠، ٢١.

للعمل ، نشأ عن طبيعة كل جنس من الجنسين ، أصبح يراه ثمرة لتأهل الرجل ومرانه ، وهو الأمر الذي حرمت منه المرأة وأبعدت عنه قروناً طويلة ، ومن ثم يعلق صلاح دخولها هذه الميادين على اكتسابها هذه المؤهلات وذلك المران ، وهما في الامكان ، ولذلك فهو يرى أن حرمانها من هذه الوظائف السياسية العليا هو أمر مؤقت سيزول بزوال ما له من أسباب .. أما عبارته المعبرة عن فكرته هذه ، فهي التي يقول فيها :

« اني ما طلبت ولا أطلب المساواة بين المرأة والرجل في شيء من المزايا والحقوق السياسية ، لا لأني أعتقد أن الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية ، حجراً عاماً مؤبداً ، هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعي ، بل لأني أرى أننا لا نزال إلى الآن في احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية ، وان المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشيء مطلقاً ، ويلزمها أن تقضي أعواماً في تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ إلى مسابقة الرجال في ميدان الحياة العمومية ... » [٧٢] .

هكذا رأى قاسم أمين قضية « عمل المرأة » .. وهكذا تطور فكره ازاءها ما بين سنة ١٨٩٤ م وسنة ١٩٠٠ م .

* * *

---

(٧٢) المصدر السابق، جـ٢ ص ١٦١ .

والآن . . لقد آن الأوان لنسأل هذا السؤال :

أية امرأة تلك التي ركز قاسم أمين حديثه عنها ؟

وبنت أية طبقة من طبقات الأمة تلك التي سعى لتحريرها ؟

لقد سبق لنا وأثبتنا أن قاسم أمين كان داعية مصلحاً يبشر بقيم المجتمع البورجوازي ، ويدعو لفتح الطريق أمام مصر كي تتطور فتخلف عصر الاقطاع وراءها وتدخل إلى رحاب التنوير البورجوازي . . والآن نقول : ان المرأة التي شغلت قضايا تحريرها عقل قاسم أمين ، هي ، في الأساس ، المرأة البورجوازية ، امرأة الطبقة التي كان ينتمي اليها ، بنت الطبقة الوسطى ، التي كانت متميزة عن بنات الارستقراطية الاقطاعية وكبار الملاك الذين يغلب عليهم الانتماء التركي والشركسي والانتساب لعناصر المتمصرين . . والتي كانت متميزة كذلك عن بنات الفلاحين .

ولم يكن اهتمام قاسم أمين بنساء الطبقة الوسطى تعصباً لطبقته الاجتماعية ، ولا انغلاقاً على عالم خاص به من الناحية الاجتماعية ، فهو بالتأكيد مصلح كان ينظر للأمة ككل ، وإن غلبت عليه رؤية لونها انتماؤه الاجتماعي . . ولكن مبعث هذا الاهتمام أنه لم يكن يعلق أية آمال على نساء الارستقراطية

الزراعية ، فهن مثل طبقتهن غرباء عن روح هذه الأمة وقضاياها المصيرية ، يعشن كطبقتهن على هامش هذا المجتمع ، ولا صلة بينهما إلا صلة الاستغلال الاقطاعي واستنزاف ريع الأرض من الفلاح .

أما المرأة الفلاحة والتاجرة والممارسة لحرفة من الحرف .. فلقد رآها قاسم أمين عضواً عاملاً في المجتمع وطاقة منتجة .. صحيح أنها لا تقرأ ولا تكتب .. صحيح أنها غير « متعلمة » .. ولكن انخراطها في الحياة العامة مع الرجل ، وفي مساواة له ، قد جعلها « مثقفة » بالخبرة والتجربة ، فهي ليست قيداً على تطور المجتمع إلى الأمام ، وإن تكن لديها طاقات أخرى كامنة يستطيع التعليم أن يطلقها من عقالها .. إن بينها وبين الرجل ، في طبقتها ، مساواة إلى حد كبير ! .

أما امرأة الطبقة الوسطى فإنها كانت موضع أمل ، بل عليها ـ مثل طبقتها ـ تعلق الكثير من الآمال في قيادة نهضة الأمة وتطورها .. ومع ذلك فهي وإن « تعلمت » إلا أنها بمقاييس « الثقافة » دون امرأة الريف والحرفيين والتجار . فهي الطاقة المعطلة حقاً وتماماً من بين النساء اللاتي تتعلق بهن آمال المصلحين .. ومن ثم فإن اتخاذ قضية تحريرها محوراً لقضية تحرير المرأة عموماً هو أمر له ما يبرره ، خصوصاً من مصلح مثل قاسم أمين .

ونحن نستطيع أن نتأكد من صدق تحليلنا هذا إذا قرأنا بعض عبارات قاسم أمين .

فهو في المقارنة بين امرأة الطبقة الوسطى والمرأة الفلاحة يقول : « تساوت النساء عندنا في الجهل مساواة غير محبوبة ، ولا يظهر اختلافهن إلا في الملبس والحلى . بل يمكن أن يقال : أنه كلما ارتفعت المرأة مرتبة في اليسر زاد جهلها ، وان آخر طبقة من نساء الأمة ، وهي التي تسكن الأرياف ، هي أكملهن عقلاً ، بنسبة حالها .

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح ، مداركهما في مستوى واحد ، لا يزيد أحدهما عن الآخر تقريباً . مع أننا نرى الرجال في هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ، ولم تتبعهم نساؤهم في هذه الحركة ، بل وقفن في الطريق . وهذا الاختلاف هو أكبر سبب في شقاء الرجل والمرأة معاً »[٧٣] .

ثم يعرض لذات القضية ، وهو يتحدث عن « الحجاب » ، فيقول :

« وإذا أراد القارىء أن يتبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب ، على وجه لا يبقى للريب معه مجال ، فما عليه إلا أن يقارن بين امرأة من أهله تعلمت وبين أخرى من أهل

---

(٧٣) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٢٥ .

القرى أو من المتجرات في المدن لم يسبق لها تعليم ، فإنه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة أجنبية وتلعب « البيانو » ولكنها جاهلة بأطوار الحياة ، بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها ، وان الثانية ، مع جهلها . قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوى والحوادث التي مرت عليها ، وان كل ذلك قد أفادها اختباراً عظيماً ، فإذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى ! »(٧٤) .

فالتعليم لبنت الطبقة الوسطى لم يفدها الثقافة والمعارف والخبرات بينما اكتسبت الفلاحة والتاجرة الثقافة والمعارف والخبرات الخاصة بالحياة من العمل . . وما ذلك إلا لأن الأولى تعيش مجتمعاً إنفصالياً عزلها فيه الحجاب عن مصدر المعرفة الحقة ، بينما تساوت الثانية مع رجل طبقتها ، فخاضا معاً غمار الحياة .

تلك هي أفكار قاسم أمين عن مشاكل المرأة الشرقية . . وآراؤه في إصلاح أمرها .

وهذه هي المرأة التي من أجلها أطلق صيحة النهضة والتحرير .

---

(٧٤) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٥٧ .

في التمدن الاسلامي

[يجب أن نرجع إلى التمدن الاسلامي القديم ، لا لننسخ منه صورة ونحتذي مثال ما كان فيه ، بل لأنه يحتوي على كثير من أصول حالتنا الحاضرة .. لقد انتفعت به الانسانية ، واستكملت ما كان ناقصاً منها في بعض أدوارها .. ولكن كثيراً من ظواهره لا يمكن أن يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية .

ان علينا أن نزنه بميزان العقل ، ونتدبر في أسباب ارتقاء الأمة الاسلامية وأسباب انحطاطها ، ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء نتتفع به اليوم وفي ما يستقبل من الزمان .

وعلينا كذلك أن نربي أولادنا على أن يعرفوا شؤون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ..] .

قاسم أمين

نعني « بـالتمـدن الاسـلامي » ، هنـا ، تلك الآراء والنظرات التي أبداهـا قاسم أمين عندما عرض « للدين » الاسلامي ، و « الحضارة » الاسلامية ، وموقفه من القضية الهامة التي طرحت في عصره عندما اختلف الناس في الاجابة على سؤال : هل نعود ـ ونحن ننهض ونستيقظ ـ إلى منابعنا الاسلامية نستوحيها ونحتذيها ؟ أم نجعـل وطننا قـطعة من أوروبا فكراً وقيماً وحضارة وعلماً وعملاً ؟

وقاسم أمين لم يكن مصلحاً إسلامياً ، وخلفيته الفكرية الاسلامية لا تؤهله لأن يكون كاتباً إسلامياً ، فضلاً عن أن يكون مصلحاً إسلامياً . . بل ان طبيعته الخاصة وتكوينه الذاتي كانا ينأيان به عن أن يكون الكاتب المتخصص والمهتم بأمور الدين ، ولكنه كان ، مع ذلك ، غيوراً على الاسلام ، تستفزه حملات خصومه عليه تحت ستار الحملة على المسلمين ، أو حملات خصوم المسلمين عليهم تحت اعلام الحملة على الاسلام . . ولقد كانت هذه البضاعة رائجة في عصره ، لأنه

كان يشهد المد الاستعماري الأوروبي على الشرق ، وهو المد الذي استعان على الغزو ببعض أسلحة الغزوة الصليبية في العصر الوسيط .

ولعل ذلك هو الذي جعل أغلب حديث قاسم أمين في الاسلام ، ودفاعه عنه يأتي في كتابه « المصريون » الذي رد به هجوم دوق داركور على مصر والمصريين المسلمين . . وفي هذا الكتاب يوضح قاسم أمين طبيعته ومزاجه حيال هذا المبحث ، فيقول :

« لست أحب الخوض في حديث عن الدين ، لأسباب تتعلق بطبيعتي الخاصة ، وبحرصي على مراعاة اللياقة العامة ، غير ان علي في هذه المرة أن أفعل ما أكره ، لأن موضوع الدين قد سيطر على جميع أجزاء كتاب داركور ، بل انني لأكاد أعتقد أنه هو الذي كان حافزاً على وضع كتابه ، ولهذا فإني أستأذنه في أن أخصص له بدوري عدة سطور » [٧٥] .

ونحن إذا ذهبنا نطالع آراء قاسم أمين ونظراته الاسلامية فإننا نستطيع ، في نهاية المطاف ، أن نخرج بحصيلة يمكن

---

(٧٥) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٩٦ .

بلورتها في عدد من النظرات والتقييمات ، منها ما هو صائب ومنها ما جاوزه الصواب .

١ ـ فهناك ذلك التقييم الذي قدمه قاسم أمين لشخصية الانسان المسلم ومكوناته الذاتية ومزاجه الحضاري ، وهو تقييم نختلف معه فيه ، ونراه قد تخلى ، وهو يخطه ، عن عنصر هام من عناصر منهجه الاجتماعي .. فهو في المنهج يؤمن بوحدةالقوانين التي تحكم التطور في الظواهر الطبيعية والاجتماعية والانسانية ، ويؤكد ـ كما سبق وعرضنا ـ على ان القوانين التي حكمت وحتمت تطور المجتمعات الأوروبية ورقيها لا بد لها وأن تفعل فعلها عندنا نحن الشرقيين .. ولكنه في نظراته الاسلامية سلك سبيلاً مناقضاً لمعطيات هذا المنهج فتراه يقدم للشخصية الاسلامية صورة تتبدى لها فيها قسمات خاصة تجعلها عصية على التقدم والتطور والارتقاء ، وتجعل منها نسيجاً إنسانياً مختلفاً اختلافاً جذرياً عن غيرها من الشخصيات ، فالأمر هنا يتعدى التمايز النابع من اختلاف الشخصية القومية إلى ما هو أدخل في التغاير « الطبيعي » بين المسلم وغير المسلم .

والذي نعتقده سبباً في ذلك ، هو أن قاسم أمين قد جعل ما هو « واقع » « طبيعياً وأبدياً » وليس « عارضاً » يتغير ويتبدل بتغير الأسباب وتبدلها .

فهو، مثلاً يقول: «ان للمسلم أفكاراً عن كل شيء تختلف عن أفكار الأوروبي عن هذه الأشياء، حتى أن ما يلائم أحدهما لا يلائم الثاني إلا نادراً»[76].

وانطلاقاً من هذه المقولة يصور «شخصية المسلم» تصويراً يضع يدنا على ملامح «شخصية صوفية» متواكلة وانعزالية، لا تربطها أية روابط بالواقع في الحياة، حتى ان أحدنا إذا ذهب يبحث عن ملامح هذه الصورة في نفسه أو جيرانه، بل وفي ذوات جماهير الناس في عصر قاسم أمين، فإنه سيعود دون أن يجد لتلك الشخصية علاقة وثيقة بنا نحن جماهير المسلمين.. ويكفي لتبيان صدق قولنا هذا أن نقرأ تعريفه لشخصية المسلم، حيث يقول:

«المسلم: أولاً لا ينتظر سعادته في هذه الحياة، ان له، أياً كان فكره، عالماً خيالياً تذهب إليه أحلامه طواعية، ويفضله على الواقع مهما كان ساخراً، فهو، عامة، لا يبالي كثيراً بكل ما يجتذب الأوروبي ويستحوذ على مشاعره. وإذا كانت الأطعمة الفاخرة والعروض السحرية الجذابة، واللقاءات الجماعية الممتعة تحتل مكاناً كبيراً في حياة الغربيين، فإنها قليلة التأثير على وجدان المسلم.

وكما أن المسلم، عامة، لا يقدر السعادة التي يبحث غيره عنها في هذا العالم، فإنه لا يؤمن بإمكان تحققها على

---

(٧٦) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٠٥.

الأرض ، ومن هنا يعتكف في عالم أحلامه التي تمثل له المتع الوحيدة الخالصة الجديرة بشغل فكره ، عزوفاً عن الثروة وألقاب التكريم ومنابع اللذة التي يعدها أشياء عابرة خادعة كأنما وجدت لتحرفه عن الطريق القويم ، وهذا ما يجعله يبدو جاداً صموتاً سوداوي المزاج .

وهو يخشى ممارسة الوظائف العامة خشية محاسبته على أعماله ومساءلته عن وسائل الأداء ، ويهرب من العالم ، لأنه يعد اغراءاته حافلة بالمخاطر ، ولا يهوى كثرة الكسب حرصاً على ضمان شرف الوسائل ، وهو في الواقع يحمل احتقاراً عميقاً لهذا المعدن الخسيس ـ (الذهب ، النقد) ـ ولعله لهذا ينفقه دون ندم ، وقد ضاعت ثروات كثرة من المسلمين في اندفاعهم لنجدة أخوانهم ، فهل هناك دليل أكبر من هذا على ازدرائهم للنقود ؟ وإذا كان كثير من المسلمين يقترضون بالربا ، فلست أعرف مسلماً واحداً يقرض ويأخذ رباً على ذلك . ولعل الشيء الذي لا يكاد يصدق هو أنه لا يرى في اللذة الجنسية إلا إشباعاً سفيهاً لاحدى الحاجات الجسدية ، حتى أن فنون الهوى التي أبدعها العشاق العباقرة ، والتي يهتم بها الغربيون ، لا تحدث أثراً في نفوس المسلمين الأنقياء »[77] .

هكذا صور قاسم « الشخصية العامة » « لعامة »

(٧٧) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٠٨، ٣٠٩.

المسلمين . . وهي صورة أقل ما يقال في نقدها : انها أخذت ما هو جزئي ونادر وشاذ فجعلته عاماً وصورته على أنه القسمات الأساسية للشخصية الاسلامية ، ومن هنا جاءت أشبه ما تكون بصورة يرسمها « سائح » عابر سبيل ، رغم أنها قد جاءت في كتاب يرد به قاسم على « سائح » وينتقد فيه منهج « السائحين » في رسم الصور وتأليف المعلومات وتأليف الكتب عن المواطن التي فيها يسيحون !

٢ ـ أما الاسلام ، كدين ، فإن فهم قاسم أمين له كان فهماً بسيطاً وجيداً في ذات الوقت . . فهو يرى ان الكثير مما أضيف إلى الدين ، بمرور العصور ، الدين منه بريء ، فالجانب « الديني » في « الحضارة الاسلامية » محدود ومحدد ، لأن الاسلام ، كدين ، عند قاسم أمين ، هو حركة اصلاح للمسيحية وتقويم لانحرافات وتحريفات الديانات التي سبقته إلى الظهور ، وبعبارته هو : « يستطيع المتأمل المنصف أن يرى أن مهمة محمد ﷺ ، كانت دينية بأقل مما كانت سياسية ، فمن وجهة النظر الدينية البحتة ، أراد النبي ، ببساطة ، إصلاح المسيحية ، بإنقاذ وحدانية الله التي غرقت في الثالوث الغامض والعصي على التفسير ، كما أراد إدانة الخرافات السوقية والأشكال الرمزية المستعارة من الوثنية الرومانية والاغريقية » (٧٨)

---

(٧٨) المصدر السابق ، جـ ١ ص ٢٩٩ .

هكذا ، ببساطة وعمق ، الاسلام كدين .

وعلى الذين يلتمسون هذا الدين البسيط أن يذهبوا إلى مصدره الأوثق : القرآن ، ثم إلى قلة من الأحاديث الصحيحة التي تجمع عدة شروط : شرط الصحة رواية .. وشرط تعلقها بأمور الدين ، بأن تكون تفسيراً لمجمل في القرآن مثلاً .. وشرط موافقتها لمنطق القرآن وروح آياته .. أما ما عدا ذلك من الأحاديث ، حتى ما صح منها ولكن كان موضوعه الأخلاق أو شؤون الدنيا ، فهو ليس من الدين .. ذلك « ان أقوال النبي لا تشكل جزءاً من الدين ، ومن الطبيعي أن ننحي من هذه الأقوال تلك المحادثات الأليفة والنصائح الخلقية ، والحكم الفلسفية التي تتضمن ، دون شك ، نصائح قيمة ، ولكنها لا تشكل التزامات وواجبات دينية .. كما يجب أن ننحي أيضاً كل ما ليس له علاقة بالفقه والتشريع ، وتبقى بعد ذلك الأحاديث القليلة التي تفسر أو تكمل التوجيهات التي يتضمنها القرآن الكريم ، والتي لا تعد جزءاً من الدين إلا بعد تحقق جاد من روايتها عنه أو بملاحظة تطابقها مع نص القرآن أو روحه ... »[٧٩] .

ويسبب من بساطة هذا الدين كانت سماحته مع العلم والعلماء ، حتى من اختلف مع أصوله ومعطياته ، إذ « لم يحدث في أية لحظة من تاريخ ديننا الاسلامي أن ثارت حرب

---

(٧٩) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٢٦.

ضد العلم ، وقد عانى من أشد النظريات مادية ، فلم يسيء أبداً معاملة واحد من العلماء ، وقد أذن لكل المعتقدات أن تحيا جنباً إلى جنب » [٨٠] .

ومن هنا ، ولهذا الفهم المستنير الذي فهم به قاسم أمين الدين الاسلامي ، كانت إشارته الهامة إلى تلك الامكانيات غير المحدودة المفتوحة أمام انتشار الاسلام في أوروبا . . فالنهضة والاستنارة والعقلانية التي سادت وتسود المجتمعات الأوروبية لا يتلاءم مع أهلها إلا دين يتميز بهذه البساطة والعقلانية والبعد عن الخرافة والاقتصاد في الغيبيات . . وهذا الدين هو الاسلام . .

ولقد كان قاسم أمين ، برأيه هذا ، يشارك عدداً من المستشرقين والأوروبيين الذين دخلوا الاسلام ، وآخرين منهم لم يسلموا ولكنهم رأوا أن الاصلاح الديني البروتستانتي هو استعارة واستفادة جزئية من روح الاسلام وتعاليمه ، وان خط سير أوروبا نحو المزيد من الاستنارة والعقلانية سيدفع بمستنيريها شيئاً فشيئاً إلى الاسلام .

أما عباراته التي صاغ فيها فكرته هذه فهي التي تقول :

« انني أبعد ما أكون عن التعصب ، غير انني أعتقد ان الاسلام هو أفضل راية يمكن أن تجمع حولها البشرية كلها

---

(٨٠) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٢٥.

متحدة في عقيدة واحدة ، ذلك أن الاسلام ببساطته ، وباختفاء الصوفية من نصوصه ، وبايجابيته الخلقية ، وإمكان تلاؤمه ببساطة أصيلة مع كل التطورات ، وبتسامحه الكبير الذي يتميز به ، يجمع ، في رأيي ، مؤهلات تكفي لترشيح نفسه ليكون دين العالم كله ، وذلك هو ما أعتقد أنه الحلم الذي كان يطمح إليه القرآن ، والذي أوشك أن يتحقق في إحدى اللحظات ، ذلك أنه دين الفطرة في شكله البسيط ، المؤهل لإرضاء الجزء الأعظم من البشرية التي لا تستطيع ، رغم كل شيء ، أن تقبل الحياة دون أن يعشش في وجدانها أمل خيالي رائع ! [81] . . ان الاسلام الذي ظل طويلاً يمثل القوة والنور في العالم كله ، ما يزال يملك ذخيرة ثقافية وعظمة خلقية تتيح له أن يصل حلقات السلسلة المحطومة ، وأن يعيد ايقاد الشعلات المنطفئة ! . . » [82] .

هذا عن الاسلام كدين .

٣ ـ ويدرك قاسم أمين كيف شوه الواقع البائس تلك الصورة الجميلة لحقيقة دين الاسلام . . وهذا الواقع البائس يتمثل عنده في « الفقهاء ورجال الدين » .

صحيح أن الاسلام ليس به « سلطة دينية » ، ومن ثم فليس به ما يسمى « رجل الدين » ، وكما يقول : « فإننا لا

---

(٨١) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٢٨ .

(٨٢) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٣٨ .

تملك هذه المؤسسة الهائلة المهيبة التي تسمى الكنيسة ، وليس هناك شيء يمثل السلطة الدينية وسطنا ، إن كل مسلم هو نفسه سلطان روحه . وليس لعلمائنا أو شيوخنا أية شخصية عامة أو دينية ، وليس لهم من السلطة إلا ما نعترف به نحن لمعارفهم »[(٨٣)] .

ولكن هذا المبدأ الاسلامي الجوهري الرائع شيء والتطبيق الواقعي شيء آخر ، فكما قلدنا الأمم والديانات الأخرى في أمور كثيرة ، قلدناهم في ظهور فئة من « علماء » الدين ، امتهنوا الدين مهنة ، فتحولوا ، عملياً إلى « رجال » دين ! ثم كان لهم ، تاريخياً ، الدور المعوق للتقدم الحضاري للمسلمين كما يقول قاسم أمين مصوراً الدور السلبي الذي لعبه نفر من الفقهاء في تاريخنا الحضاري . . « فلقد أسست المدنية الاسلامية على الأساس الديني والأساس العلمي . . ولكن لما كان العلم في تلك الأوقات في أول نشأته ، وكانت أصوله ضروباً من الظنون لا يؤيد أكثرها بشيء من التجارب ، كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعوهم تحت مراقبتهم ، وزجوا بأنفسهم في المسائل العلمية ، وانتقدوها . . وما زالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه ، وانتهى بهم الحال إلى

---

(٨٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٦٠.

الاعتقاد بأن العلوم جميعها باطلة إلا العلوم الدينية ، بل غلوا في دينهم وشطوا في رأيهم حتى قالوا في العلوم الدينية نفسها أنها لا بد أن تقف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه ، فقرروا أن ما وضعه بعض الفقهاء هو الحق الأبدي الذي لا يجوز لأحد أن يخالفه ! »[٨٤] .

وإذا كان التطور قد أصاب الكثير من مناحي حياتنا منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وفعل فعله في عدد عديد من الدوائر الفكرية ، فلقد ظل التخلف والجمود طابع الكثير من فقهائنا وشيوخنا ومذهب مراكز التوجيه الديني الرسمية .. وقاسم أمين يصور عالم بعض هؤلاء الشيوخ والفقهاء ، عندما يقول :

« ... ذلك هو الحال الذي تردى فيه بعض شيوخنا ، الذين كان عليهم أن يقدموا لنا وصفاً تفصيلياً عن السماء والجنة والنار توحي لنا دقته بالايمان بمعرفتهم لها معرفة حقيقية ، بينما هم يجهلون كل شيء عن الأرض !.. وليس في هذا ما يثير الدهشة ، ذلك أنهم بدلاً من أن ينظروا إلى العلم السماوي بوصفه قمة جميع العلوم ، نجدهم لا يجمعون المعارف الأولية التي يعيها تلميذ المدرسة الابتدائية ، ولا يوسعون أبداً نطاق دراساتهم ، ولذلك فإن هؤلاء الشيوخ هم

---

(٨٤) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٢٠٤.

كتب رائعة ناطقة ، لكنهم فقدوا منذ وقت، طويل ملكة التحليل والتعليل ، وهؤلاء الجهلة هم الذين يدعون فهم الفلسفة الدينية وقدرتهم على تفسيرها ، وينصبون من أنفسهم حماة الرسالة النبوية ، ويدعون السهر على حفظ الدين وعلى نقائه وحسن تطبيقه . . إن هؤلاء ليسوا إلا أدعياء شديدي الوقاحة ، يخنقون الذكاء ويحولون بين الفكر وبين البحث ، ويدسون الوصايا الزائفة ، ويبتكرون الحيل للإفلات من قسم أو التحرر من أحد الواجبات الدينية . . إنني أعلن ، مع ذلك ، ضرورة إدخال إصلاح محدد يتمثل في تزويد المرشحين للدراسات الدينية بمعارف منطقية وعلمية ، حتى يستطيعوا بوساطة التعليم أن ينتزعوا من عقول بعض المسلمين جميع المعتقدات السيئة التي تهدد بخنق الدين ، وأن يرشدوهم إلى طريق العودة إلى بساطة قواعد الاسلام الخمسة ، فقد كانت وحدها كفيلة بنشر الاسلام في جميع أرجاء العالم ، وما تزال وحدها قادرة على إنقاذه من كارثة مدمرة . . . »[٨٥] .

٤ ـ أما الحضارة الاسلامية ، وبالذات التنظيم السياسي في هذه الحضارة ، فلقد اختلف ازاءه موقف قاسم أمين ، أو تغير وتطور في تقييمه لهذا الجانب من جوانبها . . ولقد كان تعرضه لهذا الجانب الهام يأتي بمناسبة الحديث عن صلاح هذه الحضارة التاريخية كبديل للتخلف وأيضاً كبديل للأخذ بالنمط

---

(٨٥) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٨.

الأوروبي الذي جاء إلى الشرق في ركاب الغزاة ؟

فنحن نلمح قاسم أمين في مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م يميل إلى وجود « تنظيم ونظام سياسي إسلامي » ، كقسمة في حضارتنا الاسلامية ، وهو يرجع ازدهار المسلمين وحضارتهم إلى تطابق نظامهم السياسي مع تعاليم دينهم ، فلما أهملوا تعاليم الدين انهار كل البناء .. فالعيب هنا ، كما يراه ، ليس في النظامات السياسية .. فهو يقرر « ان المسلمين عرفوا العظمة حين كان لهم تنظيم سياسي اسلامي ، وخاصة حين كانت حياتهم وسلوكهم متطابقتين مع الأخلاقيات والوصايا الاسلامية التي بدأت مأساتهم يوم ابتعدوا عنها . ولو كان لي أن أحدد أسباب تخلف العالم الاسلامي لوضعت إهمال تنفيذ التعاليم الدينية على رأس العوامل الهامة لذلك ... »[٨٦] .

ولكنه يرجع عن هذا الرأي في مرحلة كتابيه « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م و « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م فينكر أن يكون المسلمون قد عرفوا النظامات السياسية أصلاً في مجتمعاتهم وتاريخهم ، ويرجع انهيار حضارتهم وشيوع الاستبداد بالمرأة في تاريخهم إلى افتقادهم هذه النظامات .. فيقول مثلاً :

« تجردت الجمعيات الاسلامية - (أي المجتمعات) - على

---

(٨٦) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٠٦.

اختلاف الأزمان والأماكن من النظامات السياسية التي تحدد حقوق الحاكم والمحكوم ، وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام ، بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادي دائماً . . وأساء حكامها في التصرف . . بل لعبوا بالدين نفسه في أغلب الأزمنة ، ولا يستثنى منهم إلا عدد قليل لا يكاد يذكر بالنسبة إلى غالبيتهم . . . » [٨٧] .

ثم يعود إلى تقرير الفكرة في مرحلة تالية ومكان آخر فيقول :

« . . . وأما من جهة النظامات السياسية ، فإننا مهما دققنا البحث في التاريخ - (الاسلامي) - لا نجد عند أهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاماً ، فإن شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد ، يحكم موظفين غير مقيدين . . ربما يقال : ان هذا الخليفة كان يولى بعد أن بايعه أفراد الأمة ، وان هذا يدل على أن سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذي هو صاحب الأمر .

ونحن لا ننكر هذا ، ولكن هذه السلطة التي لا يتمتع بها الشعب إلا بضع دقائق هي سلطة لفظية ، أما في الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر .

---

(٨٧) المصدر السابق، جـ٢ ص ١٦ .

ومن الغريب أن المسلمين في جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية ، ولم يتوصلوا إلى ما وصلت إليه الأمة اليونانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتها ، فقد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم في إدارة شؤونها .

وأغرب من هذا أن أمراء المسلمين ، وفقهاءهم لم يفكروا في وضع قانون يبين الأعمال التي وجدوا أنها تستحق العقاب ويحددوا العقوبات عليها ، بل تركوا حق التعذير إلى الحاكم يتصرف فيه كيف يشاء ، مع أن بيان الجرائم وعقابها هو من أوليات أصول العدالة .

ولست محتاجاً أن أقول : انهم ما كانوا يعرفون شيئاً من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. فإذا كانت حالتهم السياسية هي كما ترى فما الذي يطلب منا أن نستعيره منها ؟! » [(٨٨)] .

ونحن نعتقد ان هذا التقييم الذي أعطاه قاسم أمين لقسمة النظامات السياسية في حضارتنا هو تقييم ظالم وغريب قد جانب صاحبه الصواب .. كما نعتقد ان أهم الأسباب التي تكمن وراء ذلك هي :

أ ـ انه لم يفرق ويميز بين « الحضارة » وبين « التاريخ » .

---

(٨٨) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٢٠٦، ٢٠٧.

ففي حضارتنا فكر سياسي ، وضع قواعد للشورى ، وأشار إلى هيئات تنهض بمهام اختيار الحاكم والرقابة عليه ، وحدد قواعد الفصل بين السلطات ، وأعطى توصيفاً وتحديداً رائعاً للجرائم والعقوبات .

ويكفي أن ندل على خطأ قاسم أمين ، هنا ، وهو ينفي أن يكون المسلمون قد وضعوا قانوناً يحدد الجرائم والعقوبات ، بما قاله هو نفسه عن هذا القانون وعن الفقه الاسلامي ، عندما أشار في كتاب « المصريون » إلى أصالة هذا الفقه ، ووصفه بأنه « أعظم نصب أقامه العقل البشري » ونفى أن يكون منقولاً عن القانون الروماني ، وأكد « أنه يستمد أصالته من آيات القرآن وأحاديث الرسول » [٨٩] .

لكن قاسم أمين نظر في « التاريخ » ، والتاريخ السياسي بالذات ، فوجد قسمة الاستبداد الفردي بالحكم تغطي المساحات الشاسعة من قرون الحكم الاسلامي والبلاد الاسلامية ، ثم هو لم يميز بين تراث هذه الأمة الحضاري وإبداعها في السياسة والنظم السياسية والتشريع وبين حيلولة النظم الاستبدادية بين هذه النظم وبين التطبيق .

ب ـ لم يلتفت قاسم أمين إلى دراسة الحركات الفكرية والتيارات الثورية وأحزاب المعارضة التي استمرت طوال عصور

---

(٨٩) المصدر السابق، جـ ١، ص ٣١٩.

التاريخ الاسلامي تجاهد كي تضع في التطبيق ثمرات اجتهاد هذه الأمة الفكري في القانون والشورى والعدل الاجتماعي .. ولو أنه التفت إلى دراسة هذه القسمة لرأى أشياء أخرى مشرفة تقف إلى جانب ظلمات الحكم الاستبدادي الذي عرفه هذا التاريخ .

جـ ـ وأخيراً .. فلو أتيحت له فرصة الاطلاع على تراث هذه الأمة في الفكر الاقتصادي ، وما كتبه علماؤها في (الأموال والخراج) لرأى جذوراً عميقة لأكثر النظريات الحديثة جنوحاً نحو العدل والانصاف ، ولما قال أن المسلمين « لم يعرفوا شيئاً من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية » .

بل لو قد اطلع على قوائم عناوين تراثنا في الفكر السياسي والاقتصادي ـ قوائم العناوين فقط ـ لتردد قبل أن يصدر هذه الأحكام ؟!.

٥ ـ أما قسمة « الفكر الاجتماعي » في الحضارة الاسلامية والتمدن الاسلامي فإن قاسم أمين يعجب بها كل الاعجاب ، كما أن رؤيته لها تستحق هي الأخرى منا التقدير والاعجاب .

فهو يرى أن الاسلام يتميز بالانحياز إلى « نوع من الجماعية » و « الاشتراكية » قد أقامه على رفض « الفردية » التي أشعلت بغضاء الصراع الطبقي في المجتمعات الأوروبية ،

وعلى استبدال هذه « الفردية » بتقرير « اشتراك » الفقراء في الأموال التي هي في حوزة الأغنياء .. وبسبب من هذه الفلسفة التي هي محور الموقف الاجتماعي للاسلام فإن « العمل » هو المعيار الوحيد للكسب والحيازة والدخل الاقتصادي ، وان الشعار ـ الاشتراكي ـ القائل : « من كل حسب عمله » ، هو شعار إسلامي تماماً ومقبول من المسلمين بالتأكيد .. وبسبب من هذه الفلسفة أيضاً فإن الاسلام يرفض الحواجز الطبقية التي عرفتها وتعرفها المجتمعات التي فرقتها الملكية والامتيازات إلى طبقات ثابتة ، كما يرفض أن تكون الوراثة أو الثروة معياراً يحل محل العمل في كسب الجاه والنفوذ .

« فالاسلام لم يعرف قط امتيازات الميلاد أو الثروة . وقد سبق بهذا أكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من ألف عام .. فليس من العدالة أن تكون صدفة الميلاد في إحدى البيئات مصدراً لوضع متميز .. لقد كان المبدأ القيم عند بعض الاقتصاديين ، والقائل : (من كل حسب عمله) وسيبقى ، دائماً شعارنا ، اننا جميعاً أبناء أعمالنا .. لقد نظم الاسلام توزيع الثروة ، وأعلن اشتراك الفقراء في ملكية أموال الأغنياء . وهذا ـ كما هو واضح ـ حل للمشكلة الاجتماعية بواسطة نوع فريد من الجماعية .

أو لا ترى في مثل هذا الدستور ما يوفق بين المصالح ،

وما يهدىء جميع الخواطر ؟ أليست هذه الاشتراكية أكثر سمواً وأقرب إلى الواقع العملي من تلك النظم التي تتحدث عنها أوروبا ، والتي يتجلى قصورها وصعوبة تنفيذها ؟ . . انني أشهد في أوروبا نفوساً حائرة ، وعقولاً قلقة ، وصراعات بين الطبقات تتزايد حدتها ، فيرتعد الأغنياء ، ويصرخ الفقراء ، وتتراءى أعراض زلزال هائل رهيب . . ان أي مجتمع اسلامي لا يمكن أن يقوم إلا على تنظيم ديموقراطي ، فهو ينهض على أساس فكرة المساواة والاخاء . . ولا يعبأ بآداب المجتمعات الشكلية ، في أوروبا ، والتي تفصل بين الأغنياء والفقراء ، بين النبلاء والعامة. فالكل داخل في الكل ، وامتزاج الطبقات كامل .

أو يمكن بعد أن يعرف الانسان كل ذلك أن يتذوق شيئاً آخر ويحبه ؟! »[٩٠] .

فهو هنا لا يسوي بين « جماعية الاسلام واشتراكيته » وبين نظيرهما في الفكر الأوروبي ، بل يميز بينهما ، ويفضل المنطلق الاسلامي لتنظيم المجتمع على أساس من فلسفته - فلسفة الاسلام - في هذا الميدان .

٦ - وأخيراً . . نأتي إلى تلك النقطة الهامة في فكر قاسم أمين عن « التمدن الاسلامي » . . والخاصة بالموقف من

---

(٩٠) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٢ .

« نوع » الحضارة التي يدعو إليها قومه ، ويحبذ أن تكون طريقهم لتجاوز التخلف « المملوكي - العثماني » ، ويشير باعتمادها نمطاً للتقدم والتطور .

فمعلوم أن عصر قاسم أمين كان استمراراً لعصر اليقظة والنهضة والتجديد الذي بدأ منذ مطلع القرن التاسع عشر . . ومعلوم كذلك أن دعاة النهضة كانت تتوزعهم دعوتان أساسيتان :

الأولى : ترمي إلى الأخذ بنمط الحضارة الغربية كاملاً ، وتستهدف جعل مصر - ومن ثم الشرق - قطعة من أوروبا .

والثانية : ترمي إلى الاستفادة من « أدوات » النهضة والحضارة الأوروبية ، مع جعل منطلقاتنا عربية إسلامية ، وطابعنا عربياً إسلامياً ، وبناء حضارة عربية إسلامية معاصرة ومتطورة ، تتميز كثيراً عن حضارة الأوروبيين .

ولقد بدا قاسم أمين ميالاً ، وإن يكن في تردد شديد ، إلى التيار الثاني ، ثم عاد فانخرط تماماً في سلك دعاة التيار الأول .

فهو في مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م يقارن بين الحضارة الأوروبية وبين الحضارة الاسلامية ، ثم يحكم بأن الظفر إنما هو من نصيب الحضارة الاسلامية الأصيلة . يقول : انه « إذا كانت توجد اليوم حضارة إسلامية خالصة إلى

جانب الحضارة الأوروبية ، فإن الأصالة هي الظافرة »[٩١] .

ثم يعود فيتردد في الاختيار بين الحضارتين ، وخاصة عندما يكون المقام خاصاً بالحديث عن « الاختبارات » والبدائل المطروحة أمام النهضة المصرية . . يتردد ، ولكنه ينبه إلى أن مصر قد اختارت ، بالفعل ، النمط الأوروبي ، وان العودة منه تكاد تدخل في عداد المستحيلات . . ذلك ان أمام مصر « طريقين : العودة إلى تقاليد الاسلام ، أو محاكاة أوروبا » . وقد اختارت الطريق الثاني .

وليس علي ان أحكم على جدارة هذا الاختيار . لقد مضت في أثر حركة الحضارة الأوروبية التي تجتاح كل مكان ، والتي تبدو استحالة مقاومتها . . انها قد خطت اليوم بعيداً في هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه ، ان مصر تتحول إلى بلد أوروبي بطريقة تثير الدهشة ، وقد أخذت إدارتها وأبنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوروبي ، انها تهتم بكل ما تكتبه أوروبا أو تفعله ، وتجد كل الأفكار التي تحرك حماس أوروبا صداها هنا »[٩٢] .

وفي مرحلة كتاب « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م يجسم

---

(٩١) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٠٥ .

(٩٢) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٦٣ .

قاسم أمين هذا التردد ، وذلك عندما يقرر أن التمدن الاسلامي ليس فيه ، حضارياً ، ما يصلح للعطاء المعاصر ، وان دراستنا له يجب أن تستهدف الدراسة التاريخية ، للتقييم ، وكشف الجذور ، والاستفادة من الأخطاء حتى لا تتكرر . . أما طريق اليوم والغد فلا علاقة له بهذا النمط الحضاري الذي ساد في تلك العصور . . يقول :

« انه يجب على كل مسلم أن يدرس التمدن الاسلامي ويقف على ظواهره وخفاياه ، لأنه يحتوي على كثير من أصول حالتنا الحاضرة ، ويجب عليه أن يعجب به لأنه عمل انتفعت به الانسانية وكملت به ما كان ناقصاً منها في بعض أدوارها ، ولكن كثيراً من ظواهر هذا التمدن لا يمكن أن يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية . . يجب علينا أن نلتفت إلى التمدن الاسلامي القديم ، ونرجع إليه ، ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذي مثال ما كان فيه سواء بسواء ، بل لكي نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر في أسباب ارتقاء الأمة الاسلامية وأسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفي ما يستقبل من الزمان . . . » .

ثم يزيد الأمر وضوحاً عندما يقول :

« ان تمسكنا بالماضي إلى هذا الحد هو من الأهواء التي يجب أن ننهض جميعاً لمحاربتها ، لأنه ميل يجرنا إلى التدني والتقهقر ، ولا يوجد سبب في بقاء هذا الميل في نفوسنا إلا

شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن انشاء حالة خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا ، فهو صورة من صور الاتكال على الغير ، كأن كلامنا يناجي نفسه قائلاً لها : أتركي الفكر والعمل والعناء ، واستريحي فليس في الامكان أن نأتي بأبدع مما كان ؟

* * *

هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له من دواء إلا أن نربي أولادنا على أن يعرفوا شؤون المدنية الغربية ويقفوا على أصلها وفروعها وآثارها ! » [٩٣] .

تلك هي أفكار قاسم أمين ونظراته فيما سماه « التمدن الاسلامي » . . وهي أفكار ونظريات جمعت بين ما هو خطأ وما هو صواب ، وشهد بعضها تطوراً من الصواب إلى الخطأ أو من الخطأ إلى الصواب !

---

(٩٣) المصدر السابق، جـ ٢ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٩ .

مصر . . والمصرية . . والمصريون

[ان المصريين ـ مسلمين وأقباطاً ـ ينتمون الى جنس واحد . . والمصري لا يرهب الموت ولا الآلام ، غير أنه يحتمل بعض الاهانات ، لأن السلطة أفقدته وعيه حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها ! . . انه لا تنقصه القوة الجسدية ، ولا الطاقة المعنوية . . ان ما يحتاج إليه هو النهوض والتوجيه السليم لكي يصبح قوة عظمى . .

وليس يباح لانسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه ، ولا أن يغضب عليه إلا كما يغضب الولد من أبيه غضباً ممزوجاً بالأسف والحنو . .]

قاسم أمين

يؤمن قاسم أمين بأن المصريين شعب واحد متحد . . فليس بين مسلميه ومسيحييه فروق عرقية قديمة ، لأن المسلمين المصريين هم أقباط أسلموا وليسوا وافدين من شبه الجزيرة العربية كما يظن بعض السذج من الجاهلين أو سيئي النية !

وهو يؤمن كذلك ان اختلاف المصريين في الدين لم يكن له تأثير في يوم من الأيام على وحدتهم الوطنية الراسخة ، تلك الوحدة القائمة على قسمات الوطنية بمعناها الحديث والمصالح الوطنية الواحدة التي تجمعهم جميعاً بصرف النظر عن اختلاف المعتقدات . . فعنده ان « من المؤكد أن المصريين المسلمين الذين نراهم في المدن ، وخاصة في الريف ، ليسوا من نسل العرب ، وليسوا عرباً إلا باللغة والدين ، وتكفي ملاحظتهم للاقتناع بأنهم نفس النماذج القبطية ، وانني أؤمن - وهو ما تؤكده الملاحظة أيضاً - ان المسلمين المصريين ليسوا إلا أقباطاً اعتنقوا الدين الاسلامي .

ويشكل المسلمون والأقباط - رغم اختلاف الدين - كلا

متناسقاً يتحدث نفس اللغة ، ويرتدي نفس الثياب ، ويمارس نفس العادات . ولم يحدث قط منذ بدأوا يعيشون معاً جنباً إلى جنب أن وقع بينهم خلاف جاد . لقد ربطت المآسي المشتركة بينهم بعاطفة وطنية ، جعلتهم يرتفعون بمصلحة الجماعة فوق الاختلافات الدينية ، ويكفي أن نذكر هؤلاء الذين يتمنون فصم وحدتنا ، بأن الأقباط أثناء ثورة عرابي كانوا يسيرون مع المسلمين يداً في يد ، وأنه لم يطف بخيال مسلم أيامها أن يحرك القلق في قلب قبطي ، بينما وصف المسلمون الأتـراك والشركس بأنهم أعداء مصر ! »[٩٤] .

فنحن هنا بإزاء شعب واحد ، تربط أبناءه جميعاً روابط الوطنية بمعناها الحديث .

وقاسم أمين يدرك دور النهضة الحديثة التي شهدتها مصر منـذ حكم محمد علي في تكوين هـذا « الوطن » المصـري الحديث . . ففي ظل هذه النهضة قامت « الدولـة المدنيـة » الحديثة ، وبرزت « حقوق المواطنة » لكل المصريين كرباط يعلو على غيره من الروابط الاعتقادية . . وفي ظلها كذلك أطلق العنان ، إلى حد كبير ، لملكات الانسان المصري فأبدع وأثبت جدارته بميراثه الحضاري العريق في كل الميادين . . وبسبب كل ذلك عرف الانسان المصري معنى الافتخار الوطني والاعتزاز

---

(٩٤) المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

بالوطن ، مما جعله يقارن نفسه ووطنه بأرقى الأوطان دون أن تحول عقد النقص بينه وبين الاعتزاز بما له من طاقات وما أحرز ويحرز من انجازات .

« . . . فيوم تشكل الوطن المصري ، أو وطن المصريين على يد محمد علي الطيبة ، لم يبخل المصريون بدمهم في سبيل أن يضفوا على وطنهم أروع بريق ممكن . . ان المصري ليس جباناً البتة ، وانه لا يرهب الموت ولا الآلام ، غير أنه يحتمل بعض الاهانات ، لأن السلطة أفقدته وعيه ، حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها . انه لا تنقصه القوة الجسدية ، كما لا تعوزه الطاقة المعنوية ، ان ما يحتاج إليه هو النهوض ، والتوجيه السليم لكي يصبح قوة عظمى »[٩٥] .

وإن تلك الاهانات والمظالم التي توقعها السلطة الجائرة بالانسان المصري ، يجب ـ في رأي قاسم أمين ـ أن لا تجعل آثارها السلبية عيوننا وبصائرنا تضل وتزيغ عن إدراك الجوهر الحقيقي والرائع لـذلك الانسـان المصري الأصيـل . . فلقد يستخفى هذا الجوهر تحت مظاهر الفقر والآلام ، ولكنه أبداً لا يغيب ولا يذوب ولا يزول . . « صحيح اننا ما نزال نعرف شقاء كبيراً في ريفنا ، فالفلاحون والأطفال يعيشون في حالة حرمان من النظافة وفي إملاق مثير للشفقة . . غير انه تحت

---

(٩٥) المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

هذه القشرة من وحل الفقر يتجلى الجسد نظيفاً دائماً ، بفضل الوضوء خمس مرات كل يوم ، وغالباً ما تشمخ فوق هذا الجسد ـ كما تشمخ الزهرة ـ رأس ذكية ! »[٩٦] .

ولقد دعت هذه النظرة الموضوعية والرؤية العميقة قاسم أمين إلى أن يدعو قومه إلى التمييز ما بين النقد الموجه للواقع بهدف إصلاحه وتطويره ، وما بين ذلك النقد الهادف إلى الاستعلاء على الوطن والبراءة من الانتساب إلى « المصرية » . فقال قولته الرائعة :

« انه لا يباح لانسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه ، ولا أن يغضب عليه إلا كما يغضب الولد من أبيه غضباً ممزوجاً بالأسف والحنو ! » .

وهذا « الغضب » يعني عنده أن ننهض نحن « بانتقاد عيوبنا بنفسنا ، وعدم اخفاء شيء منها ، حتى لا نغفل عن تلافيها ، إنّ ذلك أولى من أن يلقيها يوماً في وجهنا عدو لنا ! »[٩٧] .

أما هؤلاء الذين يتخذون سبيل الاستعلاء على الوطن وأهله ، محتجين بأن لهم أصولاً ـ تركية أو عربية ـ غير مصرية فإن قاسم أمين يسخر منهم ويهاجمهم ، ويراهم خارجين على

---

(٩٦) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٥٦ .

(٩٧) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٢٤ .

الواجب الذي يقتضي احترام جوهريات القومية وقسماتها الأساسية . . يقول : ذلك « لأن أهم شيء يحفظ الأمم ويزيد رفعة شأنها هو احترام جملة أمورها الجوهرية الأساسية ، مثل : الدين ، والوطن ، والسلطة العمومية ، والعائلة ، والعلم ، والفضيلة ، وكل عمل شريف أو جميل أو نافع . .

ونحن معاشر المصريين ، ويا للأسف ، لا نحترم وطننا ، ولا نعرفه ، وكثيراً ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب الذين لا يمكن أن يعرفوه كوطن لهم بحال من الأحوال . وفاتنا أن كل عيب منسوب له هو منسوب في الحقيقة لنا ، حتى أن كلمة (فلاح) ، التي كان الأتراك يستعملونها في مقام الذم عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصري ، اتخذها المصريون عنواناً على احتقار بعضهم بعضاً .

ومن هذا القبيل أيضاً نرى بعض الأشخاص الذين ولدوا في هذه الديار من آباء ولدوا فيها ، بعد أن ترك أجدادهم بلادهم ، ولم يبق لهم أمل في العودة إليها ، يجتهدون دائماً أن يثبتوا أنهم من أصل تركي أو سوري أو عربي ، ولا يكادون يعترفون ـ وخصوصاً أمام الأجانب ـ أنهم من أبناء البلاد التي يرتعون في خيراتها ويعيشون من نعيمها .

وبديهي أن المصريين لو كانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر

أحد على تبرئة نفسه من الانتساب إليه كما يدفع المتهم نسبة الجناية إليه عنه ! » [٩٨] .

وهذا الحس المصري الصادق الذي تميز به قاسم أمين ، لا تجد فيه شائبة تشير إلى أصـلـه التركي - كما هو واضح من عباراته السالفة - بل انه يؤكد ان التعلق « بالتركية والأتراك » هو محض وهم ، لأن العناصر التركية التي استقرت بمصر قد ذبل دورها ، وفقدت دورها المستقـل في المجتمع ، « فهـذا الجنس قد انكمش الآن ، أو ذاب في المصريين » [٩٩] .

كما أن هذا الحس الوطني الصادق لم يجعله يتخذ الموقف « المتعصب » الذي ينكر مزايا الآخرين . . فهو يذكر لبعض الأوروبيين الذين خدموا مصر ، فضلهم في تنوير أهلها وخدمة مرافقها ومشاركتها السراء والضراء [١٠٠] .

ويذكر للأتراك - رغم مأساة احتلالهم للبلاد وظلمهم لأهلها - ما استفادته منهم « الأمة المصرية » ، فلقد « وجدت فيهم إنسانية راقية ، فاقتبست منهم بـالمعاشـرة والمصاهـرة : النظافة ، وترتيب المسكن ، والتفنن في الملبس والمأكل ، وكثيراً من العادات الحسنة والصفات الأدبية . . . » .

---

(٩٨) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٢٣، ٢٢٤ .

(٩٩) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٥٨ .

(١٠٠) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٥٨ .

ويلفت النظر إلى ظاهرة تفضيل المصريين الزواج من التركيات ، ويرجعه إلى نظافة المرأة التركية وذكائها وكفاءتها كزوجة (١٠١) .

وكما وجه نقده لنفر من المصريين المنحدرين من أصول غير مصرية ، وإلى نفر من الأوروبيين الذين كان همهم الأول « جمع الثروات في أسرع وقت ممكن والرحيل بها بعد ذلك » عن مصر ، دون أن « تجتذبهم الحركات العلمية والأدبية » تراه كذلك قد تنبه للدور « الطفيلي » الذي قام به اليهود في استنزاف ثروة الوطن دون أن يضيفوا إليه انتاجاً يوازي ما يحصلونه من أرباح ، فيقول عنهم : ان « اليهود يشكلون أكثر اجزاء السكان - (في مصر) - استفادة ، فهم - عدا استثناءات قليلة - لا ينتجون شيئاً ، ويجنون مع ذلك أرباحاً كثيرة »(١٠٢) .

وهو بذلك يدرك وينبه إلى حقيقة أنهم إنما يهتمون بالكسب من المهن « الوسيطة » و « السمسرة » و « العمولات » ، ولا يقبلون على المخاطرة بتوظيف أموالهم في مشاريع الانتاج .

* * *

(١٠١) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٦٦ .

(١٠٢) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٥٨ .

وبسبب من ذلك المفهوم الحديث الذي أعطاه قاسم أمين لمصطلح « الوطنية » . . ولتحديده ان الوطن المصري قد تكونت لأهله خصائص المواطنة وعلائقها في ظل النهضة الحديثة التي أقامتها تجربة محمد علي . . لكل ذلك كان تقييمه لهذه التجربة أمراً يستحق منا القاء بعض الأضواء .

ويزيد ذلك الأمر أهمية ان قاسم أمين هو واحد من مدرسة الإمام محمد عبده الفكرية ، ولقد كانت لمحمد عبده آراء في محمد علي وتجربته شوهت الكثير من ايجابيات تلك التجربة ، بسبب ذلك الصراع الذي قام بين الأستاذ الإمام وتياره الفكري وبين الخديوي عباس حلمي والأسرة الحاكمة . . ومع ذلك فإن قاسم أمين قد قيم تجربة محمد علي تقييماً ايجابياً ، وكان منصفاً في عرض منجزاتها الوطنية كل الانصاف .

فهو يرى فيها المرحلة التاريخية التي ظهر فيها « الوطن المصري الحديث » . . والمناخ الصالح الذي أظهر الطاقات الحضارية الكامنة للعنصر الوطني المصري . . ويرى في القسمة الاستبدادية وحكم الفرد الذي ظل يمارسه محمد علي السلبية الأساسية التي شابت روعة هذه التجربة الحضارية .

ثم هو يفرق ويميز بين تجربة مصر في عهد محمد علي ، وبين ما أصاب هذه التجربة ، بعده ، على يد خلفائه الذين فرطوا في الميراث الغني الذي خلفه لهم مؤسس هذه

التجربة . . وإن كان لا ينسى أن يذكر للخديوي إسماعيل فضله على التعليم والري والانشاءات ، وإنجازاته الشورية والدستورية ، وهو الفضل والانجازات التي غطاها التبذير وما جره على مصر من ديون خلقت التكأة للأجنبي كي يطمع في احتلال البلاد .

كما استطرد قاسم أمين ، في تقييمه تجربة مصر الحديثة ، إلى الحديث عن الثورة العرابية (١٨٨١ ـ ١٨٨٢ م) ، فرآها ـ وهو الاصلاحي الرافض للثورة كطريق للتغيير ـ خطأ دفع إليه تعجل الأمة تحقيق الاصلاح لطول عهدها بالظلم والاستبداد [١٠٣] !

انه ليكفي في الدلالة على الموقف الايجابي ، لقاسم أمين ، في تقييم فترة تأسيس مصر الحديثة هذه أنه قد حكم بالادانة على كل فترات تاريخها ما بين عصر ازدهارها زمن الحكم العربي الزاهر ، وهذا العصر الذي قام فيه حكم محمد علي . . وهو في كل ذلك يقول :

« لقد استغلت مصر بواسطة وحوش ذات وجوه آدمية من كل البلاد ومن كل الأنواع . . في الفترة الحزينة الممتدة بين وضع مصر المتألق تحت حكم العرب وعصر النهضة الذي افتتحه محمد علي . لقد أخذت السلطة منذ أيام محمد علي

---

(١٠٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

تصبح أكثر انتظاماً واعتدالاً ، ففتحت المدارس ، وانتظم التجنيد في الجيش ، وانشئت الأساطيل ، وتفتحت حياة جديدة أمام التجارة والصناعة والزراعة ، وأخذت تتطور جميعاً ، وحفرت القنوات ، وعبدت الطرق ، وفي كلمة واحدة : أقيمت حكومة حقيقية .

صحيح أن بعض أعمال العنف والابتزاز كانت ترتكب من آن لآخر ، غير أن الناس كانوا سريعي المغفرة لمحمد علي ، وكانت الانجازات الطيبة التي يحققها والتي يريد تحقيقها تغفر له هفواته الصغيرة ، وكان ينظر إليه كوالد شديد القسوة ، لا يدرك الفارق بين التأديب واساءة المعاملة !

وخلال حكمه الطويل تهيأ المصريون لدراسة العلوم والفنون ولحكم أنفسهم بأنفسهم وكانت التجربة في صالحهم ولخيرهم .. وقد أدهشوا العالم الذي ذهل وهو يراهم يحاربون بشجاعة وينتصرون [١٠٤] ..

« ان مصر قد أيقظها ـ بعنف ـ من نعاسها الثقيل رجل عظيم منذ نصف قرن ، وأذاقها رحيق العلوم ، فأخذت تتمثله في نشوة ، ومن يومها وهي عقبلة على التعليم ، وقد أخذت تلمح مستقبلها المشرق ، وهي تتجه إليه في خطى وئيدة ، ولكنها ثابتة ودؤ وبة ... » [١٠٥] .

* * *

(١٠٤) المصدر السابق، جـ ١ ، ص ٢٧٣ .

(١٠٥) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٣٨ .

هكذا امتلأت مشاعر قاسم أمين بالحب لمصر ، وطنه الوحيد . . وهكذا كان تقييمه للفترة التاريخية التي نشأ فيها « الوطن » المصري و « الوطنية » المصرية بمعناها الحديث . . ولعل في نصوصه الواضحة والحاسمة التي قدمناها هنا ما ينفي أية شبهات يحاول البعض القاءها على هذا الجانب من تفكيره .

في الوطنية

[إن التمدن الأوروبي يطأ بقدمه جميع أنحاء المسكونة ، ويستولي على منابع الثروة فيها ، بقوة العقل أو بالعنف .. وإذا صادف أمة متوحشة أبادها أو أجلاها عن ديارها .. وإذا صادف أمة كأمتنا ، لها نوع من المدنية ودين وشرائع وأخلاق ، عاملها بالمعروف .. لكن لا يمضي زمن طويل حتى ترى هؤلاء القادمين قد وضعوا أيديهم على أهم أسباب الثروة . ولا سبيل أمامنا للنجاة إلا أن نستعد لهذا القتال ، مستجمعين من القوة ما يساوي القوة التي تهاجمها .

إن أمام مصر عقبة رهيبة هي أوروبا .. لقد حاربناها طويلاً من أجل استعادة مكاننا في العالم ...] .

قاسم أمين

كان قاسم أمين واحداً من أبناء المدرسة السياسية التي تكومت من حول الإمام محمد عبده .. يؤمن أبناؤها « بالاصلاح » طريقاً للتقدم والتطور ، ويرفضون « الثورة » .. ويعلقون الآمال على « الصفوة المستنيرة » و « النخبة المختارة » وليس على « العامة والجماهير » . وهذه « الصفوة » عندهم معيارها « الاستنارة الفكرية » ، وليس الوضع الطبقي والثروة المالية والجاه الموروث .

وفي ظل الاحتلال البريطاني لمصر ، كانت هذه المدرسة تتعامل مع سلطاته كأمر واقع لا بد لمن يريد « الاصلاح » أن يتعامل معها ويدخل وإياها في علاقات .. وبسبب من منهج « الاصلاح التدريجي » الذي اتبعته هذه المدرسة فإنها لم تطرح قضية « الجلاء الفوري » للمحتل عن البلاد كشعار لها ، لأنها كانت تؤمن بأن « الصفوة » التي لا بد منها لتسلم السلطة من المحتل لم تتكون بعد ، ومن ثم كانت ترى أن « الجلاء الفوري » - حتى مع افتراض تحققه - سينقل السلطة الكاملة

إلى الخديوي ـ وهم يناوئون حكمه وأسرته إلى حد ما ـ أو إلى الدولة العثمانية ، وهم ضد عـودة سلطانها إلى مصر ، لأنهم يؤمنون بالوطنية المصرية والذاتية المصرية المستقلة ، وبعضهم يؤمن « بالقومية » المصرية بالمعنى العصري والحديث .

ومن هنا مثلت هذه المـدرسة ، في السيـاسة ، تيـاراً معتـدلاً . . تهادن مـع الاحتلال وتعـامل معـه ، على أمـل الاستفادة من الوسائل الحديثة والاصلاحات العصرية التي أراد المحتل بتطبيقها تحقيق مصالحه ، على أمل الاستفادة من هذه الوسائل والاصلاحات في تكوين هذه « الصفوة » المستنيرة ، ومناوأة التيار الفكـري المتخلف والمتمسك بفكـرية العصـور « المملوكية ـ العثمانية » في فهم الأدب والدين وتفسير ظواهر الحياة .

أي ان هذه المدرسة السياسية المعتدلة قد تميزت عن التيار الوطني الـداعي إلى « الجلاء الفـوري » . . وهو تيـار مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م) والحزب الوطني . . وهو الذي كان أكثر شعبية وأقرب إلى « الثورية » ، وأصدق في التعبير عن الموقف الوطني السليم . . كما تميزت كذلك عن فئة المستسلمـين للاحتـلال ، واليائسـين من حصول مصـر على الاستقلال ، والمرتبطين بقوات الغزو وجهازه ارتبـاط التبعية والعمالة .

كان قاسم أمين واحداً من أبناء هذه المدرسة السياسية المعتدلة . . وإن لم تكن السياسة ، بمعناها الشائع ، شغله الأول والأهم .

وهو يحدد بنفسه أنه من فئة « المعتدلين » عند حديثه عن ضرورة قيام مجلس تشريعي نيابي حقيقي ، فيقول : لقد « باتت كثرة من المصريين المعتدلين ، وأنا واحد منهم » تطلب قيام هذاالمجلس ، ثم يضع تحفظ هذه المدرسة المعتدلة فيقول : « غير أننا نود ، بالطبع ، نظاماً فيه الغلبة للمعرفة الواعية ، لا للكم العددي ! »[١٠٦] .

ولقد فرض هذا « الاعتدال » على هذه المدرسة أن ترفض أسلوب « الاثارة الثورية » الذي استخدمه مصطفى كامل في بعث الروح الوطنية واذكائها في نفوس المصريين . . فكان محمد عبده يصف خطب مصطفى كامل بأنها « نوبات صرع ! » . . كما نجد امتعاض قاسم أمين من كثرة الحديث عن « الوطنية » ، ودخوله في كل شيء في البلاد ، على حين ان ذلك ـ من وجهة نظره ـ ليس ضرورياً لاثبات حبنا للوطن الأم ، كما لم يكن ضرورياً لاثبات حب الوطن عند الآباء والأجداد . . « فمنذا الذي ينكر على المصريين تقدمهم في الاحساس الوطني ؟ عاش آباؤنا ، وتعلموا ، واشتغلوا

---

(١٠٦) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٤٥، ٣٤٦

بالصناعة والتجارة ، وخدموا أمتهم ، وفتحوا البلاد وحاربوا الأمم ، ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة . أما الآن فأيما قرأت وفي أي مكان وجدت لا أسمع إلا : حب الوطن ، والغيرة الوطنية ، والتفاني في خدمة الوطن ، والجريدة الوطنية ، والمدرسة الوطنية ، وحزب الوطن . والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التي تشغل وتبيع وتربح لخدمة الوطن . صار حب الوطن ديناً جديداً ، من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر ، صار كعصارة الطماطم يوضع في كل شيء ليكسبه ذوقاً حامضاً يجعل تناوله سهلاً مقبولاً ؟ » [١٠٧] .

ونحن نود أن ننبه إلى أن « خطأ » هذا الموقف « المعتدل » في السياسة وفي الوطنية ، يجب أن لا يختلط « بالخيانة » و « العمالة » للاستعمار ، كما يحلو للبعض أن يحكم على مصلحي هذه المدرسة الفكرية التي انتمى إليها قاسم أمين .. فهناك من الأدلة على « زيف » هذا الاتهام الكثير والكثير [١٠٨] .

---

(١٠٧) المصدر السابق، جـ١ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(١٠٨) انظر الفصل الذي كتبناه في التقديم « للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده » تحت عنوان « الاصلاح .. فالثورة .. فالاصلاح » . جـ ١ ص ٣٣ ـ ١٠٠ ، طبعة بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، سنة ١٩٧٢ .

وإذا كانت هذه الصفحات ليست بالمكان المناسب لتفصيل الموقف السياسي والوطني لهذه المدرسة ، فإننا نهتم بأن نشير هنا إلى موقف قاسم أمين من الصراع الذي شهده عصره بين مصر وبين الاستعمار .

لقد أدرك قاسم أمين ، على نحو جيد ، ان بين مصر وبين أوروبا صراعاً حضارياً ، ومن ثم وطنياً ، يضرب بجذوره في أعماق التاريخ ، وحدد ، على نحو ناضج وحاسم ، ان العقبة أمام تطور مصر ، وبلوغها المكان الطبيعي الذي تأهلت له ، هي أوروبا !!

« . . . إن أمام مصر عقبة رهيبة هي : أوروبا ! »

لقد أخذ تأثير أوروبا يتزايد في مصر منذعهد سعيد - (١٨٥٤ - ١٨٦٣ م) - حتى أصبح له في عصر إسماعيل - (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) - سيطرة حقيقية علينا ، إذ باتت كل أفعالنا ولفتاتنا خاضعة للأوامر الصادرة من مجالس وزراء باريس ولندن وبرلين ، وأضحى وزراؤنا يميلون مرة إلى اليمين ، ومرة إلى اليسار ، خاضعين دائماً لأوروبا . . ان أوروبا استخدمت دائماً هذه السيطرة ضد مصر . . ولقد آن الأوان لتدرك أوروبا ان المصريين قد عانوا وما يزالون يعانون بسببها ، وان العدالة تفرض عليها واجب إصلاح ما أفسدته . . وفي انتظار الوقت الذي تعترف فيه بخطأ سياستها الماضية . . أسجل : ان أوروبا كانت العقبة الوحيدة الكبرى

التي كنا نحاربها من أجل استعادة مكاننا في العالم ! »[١٠٩] .

هذا عن أوروبا ، بشكل اجمالي وعام ، أما انجلترا التي أصبحت المحتل الذي انفرد باستعمار مصر ، فإن قاسم أمين يقف منها موقف « الناصح » لها بأن تأخذ بيد مصر ، وفاء « بالواجب » عليها ، ويعلق عليها « الآمال » في أن تساعد في تطور مصر إلى الأمام ، ويثني على ما تحقق في ظل احتلالها من « تقدم » في عدد من الميادين . . ولكنه يستنفر قومه إلى النهوض ، محذراً إياهم من ترك بلادهم تنفرد بها فئات الاستغلال والاستنزاف والنهب الاستعماري ، فهو « يأمل » في الانجليز ، ولكنه يطلب « المشاركة » ، ويحدد أن قانون « البقاء للأقوى والأصلح » هو الحكم في هذا الصراع بين المصريين وبين الاستعمار !!

فهو يطلب « أن تحمل انجلترا مسؤولية مستقبل مصر ، ما دامت تمسك مصيرها بين يديها » ويأمل أن لا يسمح « إخلاص انجلترا » بعودة « الفساد الدكتاتوري » مرة أخرى إلى البلاد ، ويرى أن مصر « قد بدأت تنتظم بالفعل في طريق الحضارة »[١١٠] ، وأنه قد أصبحت لديها « حكومة أمينة ومهيبة وذات مشاعر أبوية »[١١١] وان مصر قد دخلت « عصر

---

(١٠٩) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٣٩، ٣٤١.
(١١٠) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٣٤، ٣٤٤.
(١١١) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٧٤.

النظام والحرية »[١١٢] .. ويحدد أن كل هذه الانجازات إنما هي من فعل الانجليز، وان الكثير منها قد تم في وجه معارضة التيار المحافظ والجامد المناصر للقديم، « فكل ما وجد في مصر من الحرية والنظام والعدل، لم يوجد ولم يستمر إلا بعمل الأجنبي، وعلى رغم أهلها »[١١٣] .

ولكنه لا ينسى أن « يتحفظ » بعض التحفظ على ذلك الاسراف الذي يتجلى في تقييمه لدور الاستعمار في مصر، وهو الاسراف الذي يجافي الحقيقة، أو يعرض جانباً واحداً من جوانبها، فيتساءل قائلاً : لكن، « هل يعني هذا ان لدينا حكومة كاملة ؟ وأن كل شيء على أحسن ما يرام ؟؟ » - (وننبه إلى أن الإجابة بنعم كانت موقف الفئة العميلة والمستسلمة) - ثم يجيب : « ... الحق، أن لا .. فما يزال أمامنا عمل كبير، وما يزال علينا أن نعيد تنظيم إدارة الأقاليم التي بقيت مأوى لعقلية النظام القديم .. إنني أعلن حكومتي، أيضاً، بالحاجة إلى تمثيل وطني حقيقي، وإن يكن في صورة مبسطة ! »[١١٤] .

وبالطبع فنحن نؤمن بأن هذا الموقف « الوطني المعتدل » لم يكن هو أصح المواقف ولا أجداها في ذلك التاريخ ..

---

(١١٢) المصدر السابق، جـ ١ ص ٣٥٥ .

(١١٣) المصدر السابق، جـ ١ ص ١٨٠ .

(١١٤) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢٧٥ .

ولكننا لا نود أن نظلم قاسم أمين إذا تركنا القارىء يتصور أن آماله في التقدم بمصر قد كانت معقودة فقط على إصلاحات الانجليز في إدارتها ومرافقها ، فلقد كانت آمال الرجل معلقة أيضاً ، بل وبالدرجةالأولى ، على نهضة المصريين لدخول حلبة الصراع ضد الأجانب وانتزاع مواقعهم في بلادهم بجدارة ، والاستبسال في سبيل الفوز في هذا الصراع ، الذي حذرهم مغبة الاخفاق فيه . . انه يحدد جانبي الصورة كما رآها يومئذ ، إيجابياتها التي دخلت إلى الواقع المصري ، والمخاطر المحدقة بأبناء البلاد وثرواتها ومصيرها . . فيقول :

« إنني لا أجد في ماضيها ـ « مصر » ـ عصراً انتشرت فيه المعارف ، وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية ، وانبث الأمن والنظام في أنحاء البلاد ، وتهيأت الأسباب للتقدم ، مثل العصر الذي نعيش فيه الآن .

« ولكنها ، من جهة أخرى ، لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هي في هذا الزمن ، فإن تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء ، حتى فاض من منبعه إلى جميع أنحاء المسكونة . . وكلما دخل في مكان استولى على منابع الثروة فيه ، من زراعة وصناعة وتجارة . . وإن أضر بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين ، فإنه إنما يسعى إلى السعادة . . يطلبها أنى وجدها ، وبأي طريقة يرى النجاح فيها ، وهو في الغالب

يستعمل قوة عقله ، فإذا دعت الحال إلى العنف واستعمال القوة لجأ إليهما . . وهو لا يطلب الفخار والمجد . . بل المنفعة . . وتحصيل الثروة من بلاد تحتوي على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها . . فإن صادفوا أمة متوحشة أبادوا أهلها وأهلكوهم ، أو أجلوهم عن أرضهم ، كما حصل في أمريكا وأستراليا ، وكما هو حاصل الآن في أفريقيا . . وإن صادفوا أمة كأمتنا ، دخل فيها نوع من المدنية من قبل ، ولها ماض ودين وشرائع وأخلاق وعوائد وشيء من النظامات الابتدائية ، خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف ، ولكن لا يمضي زمن طويل إلا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا أيديهم على أهم أسباب الثروة . . وكلما تقدموا في البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه « داروين » : قانون التزاحم في الحياة . . فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء إلا طريق واحدة لا مندوحة عنها ، وهي أن تستعد الأمة لهذا القتال ! وتأخذ له أهبتها ، وتستجمع من القوة ما يساوي القوة التي تهاجمها من أي نوع كانت . . . »[115] .

فهو موقف « وطني معتدل » ، إذ يبالغ في تقييم انجازات الاستعمار الانجليزي في مصر ، أو على الأقل يسلط الضوء أكثر من اللازم على بعض القسمات ، لا كل القسمات . . ولكنه يستفز أمته « للقتال » دون ثرواتها وكنوزها

---

(١١٥) المصدر السابق، جـ٢ ص ٦٩، ٧٠.

التي هي الهدف الأول والأساسي في هذا الصراع الضاري والتاريخي بينها وبين الأوروبيين .

وهـو لذلـك ، أيضاً ، يـدعو إلى جعـل « الاحساس الوطني » أحد أسس ثلاثة لا بد أن يقوم عليها نظام « التربية » عندنا . . ومعه : الأساس الديني . . والوازع النفسي وتنمية الضمير [١١٦] .

* * *

وهناك حقيقة أخرى ، وأخيرة ، في « الموقف الوطني » لقاسم أمين ـ تتعلق « بتطور » موقفه هذا في سنوات حياته الأخيرة . . ذلك أنـه ـ مع آخـرين من أبناء تلك المـدرسة المعتدلة ـ قد شعروا بأن الاستعمار يستفيد من موقفهم هذا أكثر مما يتيح لهم ولآمالهم وأهدافهم الاستفادة من أسلوبـه العصري وبرامجه في الاصلاح . . كما شعروا بأن عدداً من إصلاحاته التي كانوا قد استبشروا بها خيراً قد عادت وتعود نتائجها الايجابية للاستعمار ، ولم يبق منها للوطن سوى جوانبها السلبية ، فديون الأجانب ونفقات قوات الاحتلال ونمو ثروات التجار والمغامرين والمستثمرين الأوروبيين قد التهمت أغلب عـوائد اصـلاحات الـري والـزراعـة والـرواج التجـاري في البلاد . . ولم يبق لأبناء الوطن إلا الفتات . . وخلق فئة من الموظفين تخدم جهاز الدولة الجديد أصبح هو العائد الأساسي

---

(١١٦) المصدر السابق، جـ ١ ص ٢١٥ ـ ٢١٧ .

والثمرة المؤكدة لبرامج التعليم .. ولم تحدث إضافة حقيقية لمعارف الأمة وقدرات أبنائها العقلية .. بل لقد عاد الإمام محمد عبده ، في مرضه الأخير ، فأثنى على نظام التعليم الذي أقامه محمد علي ، وفضله على إصلاحات الانجليز التعليمية ، بعد أن كان قد علق عليها الآمال (١١٧) .

وهذا التطور الذي نقول أنه قد حدث في « الموقف الوطني » لقاسم أمين ، يتجلى لنا إذا نحن تذكرنا حديثه الذي سبق وأوردناه ، والذي انتقد فيه النمط الذي سلكه مصطفى كامل في الدعوة إلى الوطنية ، ثم قارناه بالعبارات الرائعة والعميقة التي سطرها في مذكراته عندما شيعت مصر جثمان الزعيم العظيم مصطفى كامل في ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ .. وهي العبارات التي يقول فيها قاسم أمين :

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م .. يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق .. المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم « دنشواي » .. لقد اتحد يومها شعور الناس .. ولكنه بقي مكتوماً في النفوس .. أما يوم الاحتفال بجنازة صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك ساطعاً في قوة جماله ، وانفجر بفرقعة هائلة سمع

(١١٧) « الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده » ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة ، جـ ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، وجـ ٣ ص ١٧٠ - ١٧٢ .

دويها في العاصمة ، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر .

هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث ، الذي خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل ! »[١١٨] .

فنحن هنا نشعر أن قاسم أمين يبايع مصطفى كامل ومذهبه في الوطنية ومسلكه في البعث الوطني ، وهو هنا يحيي هذا « الانفجار » الوطني الهائل الذي جاء يبعث الدفء والحرارة في « القلوب الجامدة الباردة » التي نأت عن مواقع الوطنية الثائرة ولهيب حرارة الحركة الوطنية الجديدة .

وكما كانت خيبة الآمال في اصلاحات المستعمر سبباً في ذلك التطور . . فلقد كان من أسبابه ـ كما نعتقد : تعاظم التيار الوطني الذي قاده مصطفى كامل والحزب الوطني . . وأيضاً إخلاص هذا النفر من أبناء مدرسة الاعتدال الوطني لقضية بلادهم . . ذلك الاخلاص الذي دفعهم لتطوير مواقفهم وتعديل مشاعرهم عندما لم يحقق لهم « الاعتدال » ما أملوه لخير الوطن وتحرره من الاستعمار .

---

(١١٨) « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » ، جـ ١ ص ١٨٣ .

أعماله الفكرية

الأعمال الكاملة لقاسم أمين : التي جمعناها وحققناها وقدمنا لها بدراسة مستفيضة والتي قدمناها لقراء العربية ، سنة ١٩٧٦ م ، هي حلقة في تلك السلسلة التي بدأنا إخراجها منذ سنة ١٩٦٨ م ، سلسلة « الأعمال الكاملة » لأعلام عصر اليقظة العربية والبعث الحضاري الحديث لأمتنا العربية وفكرنا الاسلامي المستنير .

وفي هذه السلسلة ، صدرت :

١ ـ **الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني** : ونحن نستكمل الآن طبعتها الثانية ، كي تتضمن تلك النصوص التي اكتشفناها بعد صدور الطبعة الأولى ، وفي مقدمتها تلك النصوص التي كانت منسوبة ، خطأ ، للإمام محمد عبده . . وهي نصوص ستجعل طبعتها الجديدة تأتي في أربع مجلدات ، بعد أن كانت طبعتها الأولى في مجلد واحد .

٢ ـ **الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي** : ولقد

صدرت طبعتها الثانية ، حاوية نصوصاً ووثائق لم تنشر للكواكبي من قبل ، وحاوية كذلك التعديلات والاضافات التي أدخلها على كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » قبل وفاته . ونعمل الآن لاخراج طبعتها الثالثة حاوية مقالاته التي كانت مفقودة ، والتي نشرت بالصحف التي أصدرها بشبابه في حلب .

٣ - **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده** : ولقد اكتمل صدورها بظهور جزئها السادس والأخير . . ونفذت طبعتها الأولى والثانية . ويعاد الآن طبعها مع زيادات وتنقيحات .

٤ - **الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي** : . . وصدورها يقترب الآن من الاكتمال . فلم يبق منها سوى الجزء الأخير ، وفيه الفهارس وبعض المتفرقات .

٥ - **الأعمال الكاملة لعلي مبارك** : ولقد صدرت المجلدات الثلاث الأولى .

. . فأعمال قاسم أمين ، إذاً ، هي حلقة في هذه السلسلة ، التي نرجو لها النمو كي تضع بين يدي مفكرينا وباحثينا وقرائنا الثمرات العقلية الفذة والبارزة التي صنعت عصر نهضتنا الحديث ، والتي لا تزال فاعلة ، ومؤثرة في حركتنا الفكرية حتى الآن . . وهو انجاز نعلق على استمراره واكتماله أهمية كبرى ، لشدة حاجة حركتنا الفكرية إليه ،

وحتى لا نكون بدعاً بين الأمم المتحضرة والناهضة صاحبة التراث ، حيث تهتم معظمها بجمع آثار مفكريها الكبار ، وتحقيقها والتقديم لها ، وتغيب من دائرة اهتمامنا هذه المهمة الأساسية ، رغم غناها الفكري وشدة حاجتنا إلى وصل خيوط تطورنا الثقافي وتأصيل القيم الفكرية المشرقة في واقعنا الثقافي الذي نعيش فيه .

* * *

وإذا كان لا بد من كلمات عن النصوص التي تكون « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » فإننا نقول : أن مفردات نصوص هذه الأعمال هي :

١ ـ كلمات : وهي الخواطر واللمحات التي كتبها قاسم أمين في « مفكرته الخاصة » ، والتي كانت بمثابة « مذكرات نفسية خاصة » . . كتبها لنفسه ، وأودعها خلاصة مركزة لمجموعة من أفكاره ، صاغها في أسلوب جاء غاية في الرشاقة والجمال .

وكان قاسم أمين قد قرأ صفحات من هذه الـ « كلمات » لصديقه أحمد لطفي السيد باشا (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣ م) فلما توفي قاسم سعى لطفي السيد إلى الأسرة ، بواسطة سعد زغلول باشا (١٨٦٠ ـ ١٩٢٧ م) حتى حصل عليها ، وقام بمراجعتها مع محمد عاطف بركات (١٨٦١ ـ

١٩٢٤ م) ثم نشرتها جريدة لطفي السيد ـ « الجريدة » ـ سنة ١٩٠٨ م .

* * *

٢ ـ أسباب ونتائج : وهي خمس عشرة مقالة نشرها قاسم أمين ، دون توقيع ، في صحيفة الشيخ علي يوسف « المؤيد » ما بين سنة ١٨٩٥ م وسنة ١٨٩٨ م . . مقدمة وأربع عشرة مقالة ، عالج فيها عدداً من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي تهم دعاة الاصلاح .

* * *

٣ ـ أخلاق ومواعظ : وهي مثل « أسباب ونتائج » ، مقالات خمسة كتبها في « المؤيد » في نفس الفترة الزمنية ـ ١٨٩٥ ـ ١٨٩٨ م ـ دون توقيع ، وقصرها على علاج مشاكل « الموظف والوظيفة والتوظف » في عصر كان التسابق فيه على العمل « الميري » ظاهرة سلبية تحول بين خيرة الشباب وبين العمل المنتج ، وتنمي في هذا الشباب أخلاقيات التواكل والارتزاق .

* * *

٤ ـ المصريون . . رد على دوق داركور : وهو الكتاب الذي أصدره بالفرنسية قاسم أمين سنة ١٨٩٤ م رداً على

الكاتب الفرنسي « دوق داركور » الذي أصدر كتاباً عن مصر والمصريين سنة ١٨٩٣ م امتلأ بالتهجم عليهم وحاول فيه الطعن على الاسلام والمسلمين .

ولقد قال قاسم أمين عن ملابسات كتابته لهذا الرد : « انني حين قرأت كتاب دوق داركور مرضت عشرة أيام ، وقد قلت ذلك لجميع أصدقائي ، قبل أن يرد على خاطري فكرة الرد عليه . لقد وجدته بالغ القسوة ، وأحزنني أنه حاول انتزاع جميع آمالي ، غير انني أخذت استرد هدوئي شيئاً فشيئاً ، وبعدها شرعت أطيل التفكير في كل ما كتبه عنا ، وتأملت جميع المشاكل التي وضعها وحلها ، وخلعت عني صفتي المزدوجة ، كمصري مسلم ، لأحلل الموقف في حياد تام ودون انفعال أو تحيز ، ولم استرشد بغير الرغبة في معرفة الحقيقة ، حتى أستطيع أن أعبر هنا عن عواطفي كما يفعله أجنبي يعرف عن مصر كل ما أعرف ، ويقيمها بطريقة محايدة » .

ولقد ظل هذا الكتاب الذي يمثل قسمة متميزة في فكر قاسم أمين ومرحلة في تطوره الفكري حيال بعض القضايا الهامة ، ظل بعيداً عن اللغة العربية ، حبيس أصله الفرنسي ، حتى تقديمنا له في أعماله الكاملة .

ولقد كان ذلك سبباً من أسباب مجيء أغلب الدراسات التي كتبت عن قاسم أمين غير وافية برسم ملامحه الفكرية المتكاملة ، وبعيدة عن إدراك تطوره الفكري . . وهما الأمران

اللذان تحققهما ، ضمن ما تحقق ، الدراسة التي قدمناها عنه هنا .

أما إنجاز ترجمة هذا الكتاب فهو للصديق الأستاذ محمد البخاري .. ولنا فيه التحقيقات والتعليقات والترجمة الموجزة لما ذكر في نصه من أسماء الأعلام .

* * *

٥ ـ تحرير المرأة : وهو أكثر كتب قاسم أمين شهرة وذيوعاً .. بل أشهر كتاب عربي صدر في عصره .. صدر سنة ١٨٩٩ م فأثار أول معركة فكرية كبرى سببها كتاب منذ مطلع عصر نهضتنا في بداية القرن الماضي .

ولقد سبق لنا أن عرضنا ، ونحن نقدم للأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، إلى أن للأستاذ الإمام دوراً في تأليف هذا الكتاب ، وقدمنا في ذلك المقام أدلتنا على أن رأي الشرع الاسلامي في قضايا : الحجاب ، والزواج ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ، الذي تضمنه « تحرير المرأة » هو للأستاذ الإمام .

* * *

٦ ـ المرأة الجديدة : وهو الكتاب الذي أصدره قاسم أمين سنة ١٩٠٠ م ، وركز فيه جهده للرد على الاعتراضات التي قدمت ، في الكتب والرسائل والصحف والمجلات والمنتديات ، ضد كتابه « تحرير المرأة » .. كما ضمنه تطويراً

أكثر جرأة في عدد من القضايا التي تناولها في « تحرير المرأة » في تواضع أو على استحياء .

* * *

٧ ـ إنشاء الجامعة : وهي كلمة لقاسم أمين خطبها في اجتماع من الاجتماعات التي عقدت سنة ١٩٠٨ م للتحضير لانشاء الجامعة المصرية . . عرض فيها لأهمية التعليم الجامعي ودوره في خلق العلماء والمفكرين والمتخصصين .

٨ ـ الإمام محمد عبده : « أخلاقه وفضائله وإمامته » . . وهو خطاب قاسم أمين الذي ألقاه في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٥ م باجتماع تأبين الأستاذ الإمام ، في ذكرى مرور أربعين يوماً على وفاته ، وفيه عرض لمكانة الإمام ، ودوره في الفكر العربي الاسلامي ، والمدرسة الفكرية التي تكونت من حوله .

تلك هي مفردات الأعمال الكاملة لقاسم أمين . . وهي الأعمال التي جمعناها ، وحققناها ، وقدمنا بين يديهابدراسة مستفيضة عن حياته ، وفكره ، ومكانه من حركتنا الفكرية في عصر نهضتنا الحديث . . ولقد صدرت طبعتها الأولى عن (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ببيروت سنة ١٩٧٦ م . . وهو جهد نرجو أن يكون قد حالفنا فيه توفيق واهب التوفيق .

كلمات

[دونها قاسم أمين في مفكرته الخاصة . .
فجاءت : آية من آيات الخواطر الصادقة مع النفس . .
ونموذجاً راقياً للمذكرات التي يوحيها القلب وتسكبها العاطفة . .
وصورة من صور الشاعرية التي سطرها قلمه الرشيق .]

* الحرية [119] :

الحـرية الحقيقيـة تحتمل ابـداء كل رأي ، ونشـر كل مذهب ، وترويج كل فكر .

* * *

* لا يغرنك المرتقى السهل إذا كان المنحدر وعراً .
* ان الذي مدحـك بما ليس فيـك إنما هـو مخاطب غيرك .
* رب كلمة يتجرعها حليم مخافة ما هو شر منها .

* * *

* إذا استشارك عدوك فـاخلص له النصيحـة ، لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك .

* * *

---

(١١٩) العناوين الفرعيـة التي وضعت لفقرات هـذه « الكلمات » من إنشائنا نحن وليست من وضع قاسم أمين .

* في مصر : كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلًا ، فإذا درس شيئاً من العلم صار عالماً مفضالاً ، فإذا امتاز ببعض الحذق أو إظهاره عد من النوابغ .

* الايمان :

ليس الايمان مسألة عقلية أو علمية ، فإنا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب ، وإنما الايمان مسألة شعور صرف ، شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجاً إليه إلى حد أنه يستحيل عليه أن يعيش بدونه .

* * *

* بين العلم والدين :

تعصب أهل الدين ، وغرور أهل العلم ، هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح أنه يوجد بينهما خلاف حقيقي ، لا في الحال ولا في الاستقبال ، ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكره - بعد كل اكتشاف يحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر ، وفي نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغداً يشتغل عقل الانسان بالعلم ، أي بمعرفة الحوادث الثابتة ، ولا يمنعه ذلك من التفكر في المجهول الذي يحيط بها من كل طرف ، هذا المجهول الذي كان ويكون بعد الذي لا قرار له

ولا حد لا في الزمـان ولا في المكان هـو دائرة اختصـاص الدين .

*** العشق :**

لا شيء يشبه العشق في عنفوان نشأته ، إذا هجم هذا المستبد القاهر ارتعدت له الفرائص وحصر اللسان واختبـل العقل وخلا الطريق أمامه فوصل إلى القلب بوثبة واحدة أو بوثبات متعددة ، ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملأه برمته ، فلا يقبل منافساً أو منازعاً أو شريكاً أو ضيفاً بجانبه ، بل يستأثر وحده بالنفس فيلهيها عن شواغلها وينسيها حاجاتها ، ويفرق بينها وبين أميالها ، ويذهب همومها وأحزانها ، ولا يطمئن إلا إذا قطعت العلاقات مع غيره ، وأصبحت كلها له كأنها ولدت معه في يوم واحد وتفنى معه في ساعة واحـدة ، لا تعرف ماضيها ولا تبالي بمستقبلها ، فإذا تمكن منها على هذه الحال وقبض على زمامها رضيت بعجزها ، وشكرته على أسرها ، واغتبطت برقها ، ووجدت باتصالها بنفس أخرى قوة وفرحاً وسعادة لم تر مثلها .

العاشق عنده ما يكفيه ، سماؤه صافية مهما تراكمت عليها السحب ، ومائدته فاخرة وإن لم يكن عليها غير الخبز والملح ، تنتابه الحوادث ولا تترك به أثراً ، لأنه لا يعبأ بها ، سارة أو ضارة ، ويقاوم الحياة بجرأة عجيبة لأنه يشعر بأن في جسمه روحين وفي صدره قلبين .

إن كان في الوجود إنسان يستحق أن يحسد على نعمته فهو العاشق .

كل عشق شريف . فإن كان بين شريفين زاد في قيمتهما ورفع من قدرهما ، وإن كان بين وضيعين أكسبهما شرفاً وقتياً ، حتى إذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا إلى أصلهما .

* * *

ليس ما يكتب على أبواب الأمكنة دائماً صحيحاً . فقد يكون بين سكان البيمارستان من هو أعقل من هذا الذي تراه سائراً في الطريق متمتعاً بحريته . كذلك بيوت المومسات قد تقفل أبوابها على نساء فيهن من هي أوفر حشمة وأدباً وأكثر بعداً عن الشهوة من كثير من المخدرات اللاتي تنحني الرؤوس أمامهن .

يشعر العاشق بلذة ساحرة إذا كان محبوباً ، وإذا كان غير محبوب فيجد في ألمه لذة أخرى مشابهة للسكر ، من تنبه في الأعصاب وسرعة في دورة الدم وانفعالات شديدة في النفس ، وبالاجمال من زيادة محسوسة في مبلغ الحياة ، كلاعب القمار يتمتع بإرضاء شهوته في الربح أو في الخسارة .

* * *

* من اختباري لأرباب الأفكار الذين اختلطت بهم

يظهر لي ان الحمية عندهم سطحية لا تذكيها نار لتوقد في القلب حمية ألفاظ متى انتشرت عادت هباء لا تترك أثراً بعدها .

* الكاتب :

في الكتب والجرائد والمجلات أرى الكاتب يعتمد على التملق لجمهور القراء أكثر من عنايته بإبداء فكره .

ولكن الكاتب المحب لفنه ينشر أفكاره كما هي ، ينشر الحقيقة منزهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف مراعاة لأي أمر كان . هو العاشق الذي يعتقد الكمال فيما يحبه ولا يتصور وجود شيء يعادله ، ولا يبالي بذم الناس ، بل يجد فيه نوعاً من حماسة الغضب منبهاً لأعصابه منشطاً لقواه مغرياً له على الاستمرار والثبات .

* * *

* كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامي صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل .

* * *

* بعد سن الأربعين يبتدىء العاقل يرى أن المطلق ليس له وجود ذاتي ، وان الشروات الجميلة التي نحبها ونقدمها

كالخير والحق والعدل لا يمكن أن توجد في الخارج إلا مختلطة بنقيضاتها .

* الخطيئة :

لا بد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هي العفو عن الخطيئة ـ العفو عن أكبر خطيئة ، العفو عن كل خطيئة .

هل المخطىء مسؤول أو غير مسؤول ؟ وما هي درجة مسؤوليته ؟ مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها ، لكن حلها يكاد يكون محالاً ، إذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التي تتركب منها الذات الانسانية بوجهيها : الأدبي ، والمادي ، والقليل الذي يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الارادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل إلى تقديره عقلنا ، وكل تاريخ الانسان في الماضي يدل على أنه لم يكن متولداً عن الحيوان المفترس مباشرة فهو مشابه له في شره وأطماعه وشهواته ، خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم ، خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضاً مؤقتاً .

فالخطيئة هي الشيء المعتاد الذي لا محل للاستغراب منه ، هي الحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان ، هي الميراث الذي تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم أن اقتربا من

الشجرة المحرمة وذاقا ثمرتها التي يتخيل لي أنها كانت ألذ من كل ما أبيح لهما . من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما ، وانتقلت منهما إلى ذريتهما جيلاً بعد جيل . ذلك هو الحمل الثقيل الذي تئن تحته أرواحنا الملتهبة شوقاً إلى الفضيلة العاجزة عن الحصول على اليسير منها إلا بمقاساة أصعب المجهودات ، حتى هذا النزر القليل لا سبيل إلى بلوغه إلا بتمرين طويل يتخلله حتماً سقوط متكرر في الخطيئة يكون منه الدرس المفيد لاتقائه في المستقبل .

وأخيراً فإن العفو هو الوسيلة الوحيدة التي ربما تنفع لاصلاح المذنب ، فقلما توجد طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن أن تلين إذا هي عولجت .

* * *

* أمر لا تدري متى يغشاك لا يمنعك مانع من أن تستعد له قبل أن يفاجئك .

* لا تصحبوا الأشرار فإنهم يمنون عليكم بالسلامة منهم .

* في اللغة :

لا أدري ما هي غاية الكتاب الذين إذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية المصطلح عليها ، كاستعمالهم مثلاً كلمة

السيارة بدلاً من كلمة الأوتوموبيل . إن كان المقصد تقريب المعنى إلى الذهن فالكلمة الأجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه أتم من الكلمة العربية ، وإن كان مقصدهم إثبات أن اللغة العربية لا تحتاج إلى اللغات الأخرى فقد كلفوا أنفسهم أمراً مستحيلاً ، إذ لم توجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها .

يظهر أن باب الاجتهاد أغلق في اللغة كما أقفل في التشريع ، فقد صار من المقرر بيننا أن اللغة العربية وسعت وتسع كل شيء !

لكي يكون هذا الاعتقاد صحيحاً يجب أن نفرض أن هذه اللغة نتيجة معجزة ، فظهرت كاملة من يوم وجودها في العالم ، وهذا يناقضه قيام الدليل على أن جميع اللغات خاضعة لقوانين التحول والرقي العام ، وتابعة في أطوارها لسير الانسانية ، فهي إذن مظهر من مظاهر غريزتها الطبيعية التي لا تزال تنتج وتبدع كما فعلت في الماضي . ولا أدري لماذا يريد قومنا أن يستبعدوا من اللغة العربية الكلمات الفصيحة وطرق التعبير الجميلة التي نسمعها أحياناً في لغة العامة بحجة أنها لم ترد على لسان العرب .

نحن خلفاء العرب في لغتهم ، فكل ما تخترعه ملكاتنا في اللغة يعد عربياً بالطبع .

* * *

لم أر بين جميع من عرفتهم شخصياً الذي يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن. أليس هذا برهاناً كافياً على وجوب اصلاح اللغة العربية.

لي رأي في الاعراب أذكره هنا بوجه الاجمال، وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأي عامل من العوامل، بهذه الطريقة، وهي طريقة جميع اللغات الافرنجية واللغة التركية أيضاً، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال.. الخ. بدون أن يترتب عليه إخلال باللغة، إذ تبقى مفرداتها كما هي.

في اللغات الأخرى يقرأ الانسان ليفهم، أما في اللغة العربية فإنه يفهم ليقرأ فإذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الأحرف الثلاثة «ع ل م» يمكنه أن يقرأها علم (١٢٠) أو علم (١٢١) أو علم (١٢٢) أو علم (١٢٣) أو علم (١٢٤) أو علم (١٢٥). ولا يستطيع أن يختار واحدة من هذه الطرق إلا بعد أن يفهم معنى الجملة فهي التي تعين على النطق الصحيح

---

(١٢٠) بفتح العين وكسر اللام.
(١٢١) بضم العين وكسر اللام.
(١٢٢) بكسر العين وسكون اللام.
(١٢٣) بفتح العين واللام.
(١٢٤) بفتح العين واللام المشددة.
(١٢٥) بضم العين وكسر اللام المشددة.

لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون .

كان المؤلفون في القرون الوسطى هم ابن سينا [١٢٦] وابن رشد [١٢٧] وابن مسكويه [١٢٨] واضرابهم ، كانت اللغة العربية لغة الأدب والعلم والفلسفة ، لذلك كانت أوسع وأغنى لغات العالم ، ثم مرت عليها القرون الطويلة وهي واقفة في مكانها لا تتقدم خطوة إلى الأمام ، واللغات الأوروبية أخذت تتحول وترتقي كلما تقدم أهلها في الآداب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب في السهولة والايضاح والدقة والحركة والرشاقة ـ صارت أنفس جوهرة في تاج التمدن الحديث .

رغماً عن هذا قد أجمع قومنا على أن لغتنا لا تزال حتى الآن حافظة مركزها الأول ، ويزعمون أنها سيدة اللغات ، كما أجمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا .

---

(١٢٦) أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا ١٩٨٠ (١٠٣٦ م) فيلسوف وطبيب شهير في التراث الاسلامي ، لقب بالشيخ الرئيس . وهو صاحب نزعة إشراقية في الفلسفة .

(١٢٧) أبو الوليد بن أحمد بن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨ م) فيلسوف قرطبة ، الشارح الأكبر لآثار أرسطو ، وأبرز فلاسفة التيار المشائي المسلمين .

(١٢٨) أبو علي الخازن « المتوفى سنة ١٠٣٠ م » فيلسوف وأديب ومؤرخ وعالم بالكيمياء . وله في الأخلاق كتاب « تهذيب الأخلاق » ، وفي التاريخ « تجارب الأمم » وغيرهما كثير .

* **الابتكار :**

الشعراء والكتاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن أفكارهم في ما يكتبون ، وإنما في عقولهم مخازن تحفظ ما يدخل فيها بالقراءة والسماع ، ومستودعات لأفكار غيرهم يتعاملون بهذه البضاعة التي ليست لهم ، ولا يضيفون أو يعلقون عليها شيئاً من أنفسهم . كل عملهم محصور في تكرار أفكار الغير التي حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن ، فإذا سمعهم العامة أو قرأوا كلامهم صفقوا ومدحوا وصاحوا ! فلان ما أحلاه ! علان ليس في العالم مثله !

* **طلب الحقيقة لذاتها :**

طلب العلم عندنا وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة ، أي لكسب المال ، أما حب الحقيقة والاستغراق في تحصيلها والشوق إلى اكتشاف المجهول ومغالبة الصعوبة والاهتمام بترقية النفس ، وبالاجمال التعليم للتعلم فلا فائدة فيه ، والفائدة كل الفائدة في هذا الذي لا فائدة فيه .

* **صحافتنا :**

إذا قرأت الجرائد تجدها جميعاً متحدة في موضوعها متشابهة في تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين إحداها والأخرى ، وإذا اجتمعت في اليوم بعشرين رجلاً من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول ، ولا

تجد في الجريدة التي تقرأها أو تسمع من الصاحب الذي تقابله فكرة غريبة أو تعبيراً جديداً أو أسلوباً مبتدعاً ، لا تجد النابغة الذي يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه .

* * *

* يوجد عدة طرق للتعبير عن كل فكرة ، أحسنها طريقة واحدة : هي التي يجدها الكاتب المجيد .

*** حدود الانسان :**

عقل الانسان المحدود لا يسع غير المحدود ، وعلمه القليل لا يصل إلى إدراك المجهول الذي لا نهاية له ، لذلك تراه متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل في عالم الظلام وسار كالأعمى يتخبط يميناً وشمالاً ، لا فرق في ذلك بين الغبي الجاهل والذكي العالم .

* * *

المقلد في إيمانه مقصر يحمل عقيدته كما تحمل الوردة في عروة الملابس ، والمنكر مجازف جاوز حد العقل والعلم ، وأبغض منهما من يخادع بدينه فيقول : إن كان الله غير موجود ما خسرت أكثر من غيري وإن كان موجوداً ربحت مع الرابحين ، لذلك أومن به ! هذا هو المحتال الذي لا يصان أحد - حتى الاله - من نصبه .

* **الأخلاق :**

الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الانسان في جميع أدوار حياته ، فتارة تخضع للأولى وتارة تغلب عليها الثانية ، ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم يكون آمناً من السقوط يوماً في الرذيلة ، كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة إلا وفيه استعداد لأن يأتي يوماً بأفضل الأعمال .

وحقيقة الأمر أن أخلاق الانسان ليست شيئاً يتم دفعة واحدة ، وليس لها حد تقف عنده . إنما هي في تحليل وتركيب ، في تكوين مستمر ، يعتريها الانحلال زمناً وتعود بعده إلى التماسك .

الانسان أسير الشهوات ما دام حياً ، وإنما تختلف شهواته باختلاف سنه ، فشهوة اللعب عند الطفل ، وشهوة الحب عند الشاب ، وشهوة الطمع عند رجل الأربعين ، وشهوة السلطة عند شيخ الستين ، جميعها شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا ، متى وقع فيها أحدنا يجب عليه ألا يترك نفسه إلى تصرفها ، ولا يستصعب الخلاص منها ، ولا ييأس من نفسه بل عليه أن يقاومها كما يقاوم المريض علته ، عليه أن يوجه إرادته إلى مصارعتها والتغلب عليها . عليه أن يحول فكره عن الأمس الذي كان فيه قبيحاً وينظر إلى غده الذي يكون فيه جميلاً .

لا يطلب الكمال من المرء وإنما يطلب منه أن يكون في كل يوم أحسن منه في اليوم الذي مضى .

في ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش إلا عند الرجل الذي حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوماً مهاجماً ويوماً مدافعاً ، كذلك الحال في جهاد النفس لا تجد ثبات الجنان إلا عند الرجل الذي عرض نفسه إلى استهواء الشهوات وخدائع اللذات ، فإذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليهابعد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه التي هي الفضيلة الحقيقية ، خلافاً للرجل الذي احتجب عن جواذب الشهوات فإنه متى وجد أمام فرص مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها إلا قليلاً ، وإذا سلم في نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها .

* * *

* بعد سن الأربعين كل زلة خطرة .

* عين الطماع حينما تبصر شيئاً تشتهيه ، لها نظرة تحيط به وتحويه برمته وتحوزه وتفعل في نفسك ما يفعله الاختطاف الحقيقي . هذه النظرة رأيتها كثيراً عند المعتاد لعب القمار .

* * *

* يوجد أناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص في خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الاتقان المعهود.

* * *

* لا تكمل أخلاق المـرء إلا إذا استوى عنـده مدح الناس وذمهم إياه .

* أصحاب النفوس الكبار :

زارني أشهر أديب يكتب الآن في مصر باللغة العربية ، وكان في يدي كتـاب فرنسـوي يشتمل عـلى حكم ومواعظ موضوعة في جمل مستقلة لا ارتباط بينها ، فقرأ فيه عبارة هذه تـرجمتهـا : « إني أخشى مـا أتمنى » . فقـال : كيف يخشى الانسان الشيء الذي يتمناه ، فأجبته : كل إنسان يخشى ما يكره ، وليس كل إنسان يخشى ما يتمنى ، وإنما هذه صفة يختص بها ذوو النفوس الممتازة ، وتكون سبباً لشقائهم ، يرى الواحد منهم وردة جميلة في البستان فيتمنى أن يقطفها ، ولكن يبعده عنها ما حولها من الشوك ، يشتهي تفاحة جميلة تعجبه بلونها البديع ورائحتها الزكية ، ولكنه يخشى الدودة الكبيرة التي ربما تصادف أسنانه وقت أن يعض عليها فيلقيها عـلى الأرض وهو يشتهيها ، يلاقي المرأة التي كان يراها في مخيلته مثال الجمال ، فيود أن يلقي نفسه تحت أقدامها ويعطيها قلبه وحياته ، ولكنه يخشى أن تكون كاذبة كغيرها ، يتمنى صديقاً ويخشى أن يجده خائناً . . يتمنى . . كل شيء ، ويخشى أن لا يجد فيه كل ما تخيله . وهكذا يقضي حياته بين الأمل والخوف من تحققه ، وتنتهي به الحال إلى أن يرى أن السلامة في ترك الأماني .

* * *

* كل مباحثة مفيدة إذا كان الغرض منها إظهار الحقيقة ، ولكنك لا تجد إلا شخصاً يريد أن يعلمك ما ليس له به من علم ولا يصغي إلى شيء مما تقوله لأنه ليس مشتغلاً إلا بما يقوله .

* * *

*** الوحدة :**

وجدت السآمة غالباً في الاجتماعات ، وما شعرت بها في الوحدة . أشتاق إلى الناس فإذا اختلطت بهم رأيت وسمعت ما يزهدني فيهم فأفر منهمَ وأرجع ملتجئاً إلى نفسي فأجد فيها الراحة والسكون .

*** الصديق والعدو :**

من الذي يحب صاحبه أو قريبه أو مواطنه أكثر ؟ أهو الذي يكشف الستار عن عيوبه ويظهرها له كما هي ؟ أم الذي يغض البصر عن نقائصه ويخفيها عليه ويمدحه ليسره ؟ لا شك أن الأول هو الصديق المكروه والثاني هو العدو المحبوب .

*** الرياء :**

من الناس من إذا أراد أن يفعل الخير انتهز الوقت المناسب لاعلانه ، فإذا رأى شهوداً وضع يده في جيبه وأخرج كيسه وعد النقود ووضعها ببطء في يد صاحبه بعد أن يراها الحاضرون ، ولكيلا يبقى عندهم شك في مقدارها يقول لمن

تفضل بمساعدته : خذ هذه الجنيهات العشرة ، فإذا خرج هذا المسكين التفت إلى من حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتياده عمل البر ، ثم كلما اجتمع في نهاره بواحد من معارفه أوجد مناسبة ليقص عليه خبر هذا الحادث العظيم . هذا الرجل أراد فعل الخير لنفسه فاستعمل صاحب الحاجة وسيلة لذلك .

ومنهم من يريد فعل الخير فيقبل على المحتاج ويفتح له قلبه ويصغي إلى شكواه ويشاركه في ألمه ويحزن لحزنه ثم يبذل له من عبارات التسلية وكلمات النصح ما يقوي عزيمته، فإذا قدم إليه مساعدة مادية دسها في وسط الكلام والمحاورة وهو مضطرب خجل خائف أن يجرح إحساساً شريفاً. يحتال في انتخاب طرق العرض ويعتذر عن عمله، فإذا قبل منه شعر بفرح كمن يكون وقع في ورطة ثم تخلص منها. ذلك هو المحسن الذي يعرف أن للنفس حياء يجب احترامه كما أن في الجسم ما ينبغي غض النظر عنه.

فعل الخير حسن وأحسن منه ستره.

* التجارب:

أقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والأساتذة، وأعظمها ما تعلمه بتجاربه الشخصية في الأشياء والناس.

في الأمة الضعيفة المستعبدة حرف النفي (لا) قليل الاستعمال.

* العقوبة في التربية:

من مروري في المدارس والمكاتب أحفظ تذكاراً ثابتاً لا يزول أبداً ـ وهو الخوف من الضرب ـ في الكتاب ضرب بالعصي على الأرجل أو الكتف أو الرأس أو أي مكان آخر من الجسم، وفي المدارس بالنيلة المزفتة والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام ـ كنت أذهب إلى محل التعليم مصحوباً باضطراب في العقل وخفقان في القلب وارتعاش في الجسم، ويعكس ذلك أرى الآن الأطفال يذهبون إلى المدارس راضين مسرورين ـ نتيجة منع الضرب فيها ودخول الألعاب الرياضية.

* الحرية:

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأي ونشر كل مذهب وترويج كل فكر.

في البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بأن لا وطن له، ويكفر بالله ورسله، ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم، ويهزأ بالمبادىء التي تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية. يقول ويكتب ما شاء في ذلك ولا يفكر أحد، ولو كان من ألد خصومه في الرأي، أن ينقص شيئاً من احترامه لشخصه متى كان قوله صادراً عن نية حسنة واعتقاد صحيح. كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية؟

* العبقرية:

يظهر لي أن الارتقاء في الانسان تابع على الخصوص لجهازه العصبي، فأكثر الناس استعداداً للرقي هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة، أولئك هم السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون، أولئك هم السابقون في ميدان الحياة، تراهم في الصف الأول مخاطرين بأنفسهم، يتنافسون فيما بينهم في مصادمة كل صعوبة، من بينهم تنتخب القدرة الحكمية خيرهم وتوحي إليه أسرارها فيصير شاعراً بليغاً أو ولياً طاهراً أو فيلسوفاً حكيماً أو نبياً كريماً.

* الفنون الجميلة:

لعل أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة: التمثيل والتصوير والموسيقى، هذه الفنون ترمي جميعها على اختلاف موضوعها إلى غاية واحدة هي تربية النفس على حب الجمال والكمال، فاهمالها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور.

* * *

دخلنا قصر اللوفر، وكنا أربعة من المصريين، لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال في العالم، فبعد أن

تجولنا في غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسي قائلاً: أنا أكتفيت بما رأيت، وها أنا منتظركم هنا. وقال الثاني: اتبعكما لأني أحب المشي، واعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمي، وسار معنا شاخصاً أمامه لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى اليسار، وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلي، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر إلى الذهب ثم صاخ: (هذا ألطف ما في هذه الديار)! وصلنا إلى تمثال آلهة الجمال الفريدة في العالم أجمع، فسألت دليلنا: ماذا تساوي هذه الصورة إذا عرضت للبيع؟ فقال: انها تساوي ثروة أغنى رجل في العالم، تساوي كل ما يملكه الانسان، تساوي ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمناً لها إذ لا حد لقيمتها.

* الأتراك:

مهما كان الرأي في حكم الأتراك لمصر فلا ريب عندي أن الأمة المصرية استفادت منهم كثيراً، وجدت فيهم انسانية راقية فاقتبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة النظافة وترتيب المسكن والتفنن في الملبس والمأكل وكثيراً من العادات الحسنة والصفات الأدبية.

وإذا كان التعليم قرب ما بين الرجال من المسافة فهي لا تزال إلى الآن بعيدة بين المرأة التركية والمرأة المصرية حتى انك لترى الرجال المهذبين يتهافتون على طلب الزواج بالأولى بقدر ابتعادهم عن الثانية. واليوم وجد المصريون والأتراك أمامهم

إنسانية أرقى، اختلطت بهم اختلاطاً كبيراً، فأخذوا يقلدون الأوروبيين في جميع شؤون حياتهم، ولا أرى ان هذا التقليد سيكون له أثر حميد في إنقاذ أمتنا من الحال التي هي فيه الآن.

* الرأي العام:

إذا رأيت الرأي العام يرمي أحد رجال الحكومة بالخيانة، ساخطاً عليه، شديد الرغبة في سقوطه، فاعلم أنه غالباً رجل طاهر وعامل نافع.

وإذا رأيت الرأي العام معادياً لكاتب، وأعد له خصوماً يتسابقون إلى نقض أفكاره وهدم مذهبه، وعلى الخصوص إذا رأيتهم ذهبوا في مطاعنهم إلى السب والقذف، فتحقق أنه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق.

ما هو الرأي العام؟

أليس هو في كثير من الأحوال هذا الجمهور الأبله، عدو التغيير، خادم الباطل، ومعين الظالم؟

لو انتظر المصلحون دائماً، رضاء الرأي العام لما تغير العالم عما كان عليه من زمن آدم وحواء.

* اللذة ومضة لا تتكرر:

صنف الطعام الذي أعجبك، أو قطعة الغناء التي اطربتك، أو ليلة الأنس التي راقتك مع محبوبتك، أو غروب

الشمس البديع الذي خفق لأجله قلبك، إذا قصدت تكراره فإنك لا تستطيع أن تجد السرور الذي شعرت به لأول مرة، فلا تحاول أن تنال ذلك في إعادته.

* الجبان المدعي:

قبيل الغروب وقف بنا «وابور النيل» الذي كان يحملنا بجانب غيط مزروع، وكان يشتغل فيه رجلان لمح أحدهما ثعباناً غليظاً قصيراً ففر وهو يصيح (ثعبان، ثعبان، ثعبان).

أما الآخر فتقدم إليه حاملاً فأسه وضربه بها عدة ضربات حتى قضى عليه، ثم تركه في مكانه، وأخذ سلاحه وعاد إلى عمله، ولم يتكلم في أثناء ذلك بكلمة، وحينئذ تحرك زميله ومشى محترساً على أطراف قدميه شاخصاً إلى الحيوان، واقترب منه بطيئاً بطيئاً، ولما وصل إليه لمسه بطرف الفأس التي كانت في يده وقلبه مرة ثم مرة أخرى حتى إذا تحقق أنه مات صاح (يا ابن الكلب!) وطعنه بالفأس طعنة قوية.

ولما رأى الثعبان لا يتحرك أمسكه من ذنبه وصعد به إلى الجسر، وكان في هذه الساعة عامراً بالمارة، فاستوقف الأطفال والنساء والرجال وصار يقص الواقعة عليهم قائلاً: (هجم علينا فقتلناه) وفي آخر الرواية يلقي الثعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء ويهرب الأطفال فيضحك هذا البطل الباسل من هذا الجبن، وما زال كذلك حتى جاء الظلام

فانصرفوا جميعاً، وهو في مقدمتهم حاملاً فريسته. أليس هو الحال دائماً في جميع مظاهر الحياة الدنيا: ترفع من رجال العمل عن حب الظهور، وجرأة من رجال القول على اغتصاب أعمال غيرهم والتبجح بها!.

* سحر المطبعة:

يفعل الكلام المطبوع في نفس الجاهل فعل السحر فيستولي على عقله، فإذا روى عن كتاب قال لنفي كل شبهة: هذا مدون في الكتب، وإذا نقل عن جريدة قال: هذا مذكور في الجرنال.

فإذا اعترضت عليه بأن الخبر يحتمل الصدق وأن الخطأ جائز على صاحب الكتاب أو الجرنال، أجابك: نعم: ولكن لا بد أن يكون الكاتب تحرى عن الحقيقة قبل النشر لأن صناعته تقضي عليه بذلك.

* * *

* توجد كلمات ألصقها الكتاب بعضها ببعض من قرون طويلة، فحيث تكون احداها تكون الأخرى، حتى ملت طول العشرة، كالعالم العلامة، والحسيب النسيب، والصديق الحميم، والسيدة المصونة. فاما طلاق يرد إليها حرية الاقتران بكلمات أخرى، واما على الأقل حيلولة مؤقتة تستريح في أثنائها من هذه الشركة القهرية.

* * *

* الذوق:

من أعظم ما يصاب به المرء أن يحرم من الذوق السليم.

الذوق السليم هو هـذا الاحساس الفطري الذي ينمو ويتهذب بالتربية، هو الشعاع اللطيف الذي يهدي صاحبه إلى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ويجتنب ما لا يناسبه.

وعكسه هو الذوق المصطلح عليه بين جماعة الظرفاء عندنا، هم على يقين من أن الذوق لم يخرج من مصر.

يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية، والعاقل يكتفي بما يراه حوله ويسمعه، يتفرج مجاناً على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين.

* صداقة:

كان خمسة من أرباب المعاشات، خمسة شيوخ، مروا على فروع الادارة المصرية القديمة وتقلبوا في مناصبها العالية من مديرية إلى مجلس الأحكام إلى ديوان الأوقاف إلى السكك الحديدية، اختاروا بيت أحدهم، أكبرهم رتبة، وصاروا يجتمعون فيه من الصبح إلى الظهر ومن العصر إلى بعد الغروب، جالسين على الكراسي في بستان عتيق مهمل، ولكنه واسع الأرجاء، تطاول أشجاره السماء، هواؤه معطر بروائح الزهور، لا يصل إليه شيء من ضوضاء الطريق، ولا يسمع

فيه غير تغريد الطيور، ماذا كانوا يقولـون ويفعلون؟ كانـوا يقضون الأيام الباقية من عمرهم مؤتنسين بهـذا الاجتماع، مكتفين به لسد فراغ حيـاتهم، وفي بعض الأحيان يلعبـون النرد، فيتقدم منهم اثنان إلى ميدان المبارزة، ويلتف حولها الباقون للفرجة، وإذ ذاك ترتفع أصواتهم - شيش يك - بنج جهار - خانه - اضرب - ويتناقشون بحدة، هذا يضحك لأنه غالب والآخر يغضب لأنه مغلوب، فإذا انتهـوا من اللعب أخذوا يتحادثون ويذكرون ماضي حياتهم وسيرتهم في أعمالهم بالتفصيل والتدقيق في تواريخ السنين والشهور، ويخرجون من أعماق حافظتهم الأمينة حوادث مهمة ووقائع غريبة رأوها أو سمعوها أيام حكم الخديويين السابقين، يـروونها ويكررونها مرات كلما عرضت لذلك مناسبة، ويتخلل هذا الحديث تهكم بقواعد الادارة الحـديثة واستهـزاء برجـال الحكومـة الحاليـة وملاحظات على فساد أخلاق هذا الجيل وعلى اختلال الأمن وضيـاع احترام الصغـير للكبير والـوضيع للرفيع والمحكـوم للحـاكم، وذلك بعبـارات وألفاظ هـادئـة مجـردة من حـدة الشهوات والتأثر، سوى نوع من التألم كان يبدو أثره أحياناً على وجوههم. وهناك موضوع كان يتردد في غـالب الأحيان في حديثهم، هو تقدير سن كل واحد منهم، متى طرقوه جرهم إلى مناقشات شديدة وعمليات حسابية طويلة وخلط في الأرقام والوقائع وعوج في الرأي واباء للحق ومغالطات ظاهرة. انوا هم أنفسهم أول من يضحك منها بصوت عال ضخم يسمع

دويه من مسافة بعيدة، ومهما بلغ جهدهم في الفحص والأخذ والرد فقد بقيت هذه المسألة غامضة، وظل كل منهم حافظاً مركزه متمسكاً بزعمه. وفي يوم حضـروا كعادتهم إلى بيت زميلهم فوجدوه قد مات في الليل فنقلوا مركز اجتماعهم في اليوم التالي إلى بيت أحدهم، واستمروا هم الأربعة على حالهم المعهودة، ولكن نفوسهم كانت تشعر دائماً ببعض الحزن كأن روح فقيدهم كانت تـطوف حولهم وتشكـو إليهم انفرادهـا وتدعوهم إلى الانضمام إليها، فلبى ثلاثة منهم هـذا النداء المستمر، وماتـوا واحداً بعـد الآخر في مـدة قصيرة، وبقي خامسهم إلى الآن منفرداً كئيباً لا يتكلم ولا يخرج من بيته، لا يدري ماذا يصنع بحياته، ويرقب الموت الذي يخلصه منها.

* ليس نقداً:

أتعرف حسين بك؟

ـ لا

رجل خفيف ولطيف لا تغيب البشاشة عن وجهه ولم يره أحد قط غير مبتسم. إذا قال لك: نهارك سعيد، ضحك، وإذا أخبرته أن الهواء طيب ضحك، وإذا سمع أن زيداً مات ضحك، زينة المجالس، وأنيس النوادي، يرى نفسه مكلفاً بوظيفة السرور فيها ومنوطاً بنشر التفريح حوله، يستخدم كل

شيء لتسلية نفسه وأصحابه فيجد في أهم الحوادث موضوعاً للتنكيت، وفي أحسن الرجال محلاً للسخرية. لو ضحيت حياتك في أشرف الأعمال لا بد أن يفتش فيها عن الجهة التي يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس.

بين هذا الهذيان القبيح والانتقاد الهزلي الصحيح فرق عظيم، الانتقاد الهزلي الصحيح يصدر عن علم وشعور وذوق سليم ينظر إلى موضع العيوب في الانسان وجهات الضعف في الحوادث فيبتسم بسكون ولطف، وإذا علا صوته للضحك فليس لأن الضحك غايته بل يعده وسيلة للفت النظر إلى شيء يحزنه وأمر يبكيه.

غرضه الاصلاح فيجاهد فيه بالطريقة التي يراها مناسبة لاستعداده الطبيعي. لا يحقر احساساً شريفاً ولا يصغر عملاً كبيراً وإنما يحارب الرذائل والدنايا ويلحق بها أخف ما يمكن من الضرر، في هذا الأسلوب نبغ عدد كبير من الكتاب والشعراء والقصصيين في أوروبا، وعدوا من أعظم رجال الأدب والفلسفة.

* تحايل:

أخبرني موظف في الأزهر، لا يخفى عليه شيء من أسرار الطلبة، أنه كلما أراد واحد ممن فسدت أخلاقه منهم أن يسير وراء شهوته ذهب إلى أحد البيوت العمومية وعقد على امرأة

بحضور شاهدين على مهر خمسة قروش أو ما يقرب من ذلك، فإذا قضى شهوته طلقها وخرج معتقداً أنه بريء من كل ذنب.

* * *

* سئل ح . بك - ما رأيك في كتاب « تحرير المرأة » ؟

فأجاب: رديء!.. هل قرأته؟ - لا - أما يجب أن تطلع عليه قبل الحكم برداءته؟ - ما قرأت ولا أقرأ كتاباً يخالف رأيي!

* * *

* أخلاق جديدة عند الشبان : علمت أن بعضهم يحمل قوائم تشتمل على معلومات مفصلة عن البنات اللاتي يرشحون أنفسهم لخطبتهن، وعلى الخصوص عن حالتهن المالية وحال بيوتهن، فيرصدون فيها ما تملكه من الأطيان والأماكن وقيمة ما تساويه ومقدار ريعها وسن والدها والأمراض التي يكون مصاباً بها وعدد الورثة الذين يتركهم بعد موته... إلخ. معلومات لا يفكر في جمعها أشد المرابين احتياطاً إذا أقرض مبلغاً جسيماً بدون تأمين.

* الحجاب الفتنة:

رأيت يوماً في شارع الدواوين امرأة تمشي وأمامها خادم، يظهر من هيئتها أنها من عائلة كبيرة، طويلة القامة ممتلئة

الجسم، عمرها بين العشرين والثلاثين، في وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها انطباقاً تاماً، الجزء الأسفل بارز عند الأرداف ومرسوم تحت ستار الملاءة باعتدال جميل، والقسم الأعلى غير مستور، وإنما الملاءة مشبوكة في رأسها مسدولة على كتفيها وذراعيها إلى المرفقين، على وجهها قطعة من الموسلين الرقيق أقل عرضاً من الوجه ، تحجب فاها وذقنها حجاباً لطيفاً شفافاً كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر إلى منتصف الرأس مكشوفة. كانت تمشي خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجاً كما تفعل الراقصة على المسرح ، وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل إلى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام، وبالاجمال كان مجموعها تحريضاً مهيجاً لحواسهم!

* * *

* كتبت والدة من قدماء المصريين على قبر ابنها : « من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت ممن يحبهم ! » . كلمة خرجت من نفس ذاقت آلام الحياة بجميع أنواعها ودرجاتها ، كلمة يفزع من هولها كل من فارق عزيزاً محبوباً .

* * *

* لا فرق بين من يفشي سراً اؤتمن عليه وبين من يختلس مالاً أودع عنده .

* * *

* الزواج:

المصريون الذين يفهمون أن للزواج معنى غير مجرد الاستمتاع المؤقت هم تابعون لقانون الحب والأمانة والاخلاص لنسائهم وأولادهم، قانون أعلى من مبادىء حب الذات التي وضعها بعض فقهائهم.

ما دام الطلاق متروكاً إلى رأي الزوج يستحيل أن يثبت في نفوس الرجال والنساء أن أساس الزواج فكرة الاستمرار والمعاشرة إلى آخر الحياة.

* * *

الزواج عندنا حيازة رجل لامرأة يوماً أو شهراً أو سنة أو عدة سنين حيازة تنتهي بمجرد ارادة الرجل، ولا فرق بينها وبين الحيازة غير الشرعية ما جاز للرجل أن يدفع زوجته إلى الباب ويقول لها: اخرجي.

* * *

السآمة علامة النفس الشريفة.

* التربية:

يولد الانسان شريراً خبيثاً قاسياً محتالاً كذوباً. الولد الصغير لا يعرف إلا نفسه ولا يرى إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه ولا يتألم إلا من نفسه، وفيه أثرة هائلة لا حد لها. هذه العيوب

تنمو مع الطفل، وتبقى فيه حتى يصل إلى سن الرجال، فيتعلم كيف يخفيها، يحسن ظاهره ويستر باطنه. أعظم ما تنتجه التربية الجيدة إذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هذه الشجرة الخبيثة، ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها.

* * *

* الوطنية:

من ذا الذي ينكر على المصريين تقدمهم في الاحساس الوطني؟ عاش آباؤنا وتعلموا واشتغلوا بالصناعة والتجارة، وخدموا أمتهم، وفتحوا البلاد وحاربوا الأمم، ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة، أما الآن فأيما قرأت وفي أي مكان وجدت لا أسمع إلا حب الوطن والغيرة الوطنية والتفاني في خدمة الوطن والجريدة الوطنية والمدرسة الوطنية وحزب الوطن، والبيوت التجارية والمحال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التي تشغل وتبيع وتعالج وتربح لخدمة الوطن. صار حب الوطن ديناً جديداً من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر، صار كعصارة الطماطم يوضع في كل شيء ليكسبه ذوقاً حامضاً يجعل تناوله سهلاً مقبولاً!

* التقلب:

أردنا أن نحصي تقلبات أحد معارفنا في آرائه العمومية،

فوجدنا أنه كان عرابياً، فلما انتهت الثورة بالفشل صار يطلب السجن والشنق لشركائه وأصحابه! وكان من المقربين عند أحد رؤساء الحكومة السابقين، فلما ترك الحكومة تخلى عنه وانضم إلى أعدائه، وصار أكثرهم سفاهة في الطعن عليه! وهو كما يعرف جميع زوايا قصر عابدين لا يجهل شيئاً من قصر الدوبارة! كان يتودد إلى أحد أصحاب الجرائد، ويمده بأفكاره وأخباره، ثم قطع كل علاقة به وتحول إلى أشد خصومه! وأخيراً اشترك في تأسيس جريدتين مبدأ كل منهما مخالف للآخر! ومن المؤكد أن خاتمة حياته ستكون حميدة، لأنه متى شعر بقرب ملاقاة ربه تقرب إليه بالدعاء والصلاة!

* اللذة الحقيقية:

اللذة التي تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولا علو المنصب، ولا شيء من الأشياء التي يجري وراءها الناس عادة، وإنما هي أن يكون الانسان قوة عاملة ذات أثر خالد في العالم.

* البلاغة:

الكاتب الحقيقي يجتنب استعمال المترادفات، فلا يأتي بإسمين مختلفين لمعنى واحد في مكان واحد، لأن ذلك يكون حشواً في الكلام مستهجناً ودليلاً على فقر في الفكر والخيال، ولكن إذا كان المقال يستدعي ذكر عدة معان متقاربة يجمعها

معنى واحد فاستعمال المترادفات الموضوعة لها حسن ، وقد يكون مطلوباً إذا كان لازماً لتسهيل فهمها أو اظهار الفروق التي بينها . كذلك الكاتب المجيد لا يضع صفة بجانب الاسم إلا اذا اقتضى الحال أن يميزه بصفة مطابقة للواقع ، على أن الاعتماد على ذكر الصفات والمبالغة فيها بقصد التأثير هو أقل درجات فن الكتابة ، ويفضلها بكثير طريقة الكتاب الغربيين الذي يعولون في الوصف على ذكر الوقائع وشرح ظروفها وتحليلها تحليلاً دقيقاً ، أو تشريح الانسان وفتح جوفه وكشف ما خفي من أعصابه وسبر غور أحشائه والتسمع على نفسه لادراك ما يدب فيها من النزعات والخواطر والأميال والحركات ، ويوصف منظر الشيء بهيكله التام بأجزائه كلها ليحدث في نفس القارىء أو السامع صورة كاملة وشعوراً تاماً وأثراً باقياً.

* جنازة:

ما رأيت جنارة مسلم إلا أخجلني منظرها. هذه الجمال التي تحمل الفواكه ويلتف حولها الأطفال والرعاع ويتشاجرون على اختطاف ما يلقى لهم منها على الأرض، وهذه الجاموسة المسكينة التي يزفها الجائعون والشحاذون ويتضاربون على قسمتها قبل أن تموت، وهؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضاً وليس فيهم إلا الأعمى والأعرج والأعور، ويمشون بسرعة غير منتظمة، لابسين ثياباً قذرة! صائحين بأصوات

مزعجة، كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة، وهذا النعش المحمول الذي يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة إلى جهة اليمين وتارة إلى جهة الشمال، وأحياناً يطير في السماء إن كان من الأولياء المقربين!

وهؤلاء النسوة اللاتي صبغن أيديهن ووجوههن، وعفرن بالتراب رؤوسهن، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه باشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة، ما هذا كله؟ أجمع مجانين؟ أم نفر بهم مس من الشياطين؟ ألعوبة أطفال؟ أم معرض كرنفال؟!

في الجنازة التي تمر في الطريق شيء من جميع ذلك، ولا ينقصها إلا أمر واحد وضعت لأجله هو: اظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون.

* * *

لما كنت في الآستانة توفي في الليل بغتة رجل كان بيته ملاصقاً لبيتنا، فلم أسمع عويلاً، ولم نشعر بحركة غير اعتيادية، وفي الضحى خرج النعش ونقل الميت إلى القرافة مشيعاً بأقاربه وأصحابه من الرجال فقط، ومشيت معهم فلم يرتفع صوت واحد منهم بتلاوة القرآن أو بذكر الله أو بالصلاة على النبي، بل كانوا يسيرون صامتين خاشعين مطأطئين رؤوسهم، فلما انتهوا من دفنه عاد أهل الميت إلى بيتهم وأغلقوا الباب كعادتهم.

* شراهة:

دعينا للعشاء عند م. باشا، وكنا ستة أو سبعة من الأصحاب، مسرورين باجتماعنا، مستعدين للتمتع بمسامرة ودية مجردة عن التكلف، وبينما نحن متجهون إلى قاعة الطعام إذ دخل علينا زائر من المشايخ، فاضطر صاحب المنزل إلى أن يدعوه إلى الأكل معنا، فدخل أمامنا، واختار لنفسه أحسن مكان، وكان أول الجالسين. جلس على الكرسي القرفصاء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله، ثم برم كم القفطان والقميص الذي تحته برماً محكماً فانكشف الساعد إلى المرفق، فتمثل لي جالساً في مكان من الميضاء يستعد للوضوء! اشتغل بالأكل ولم ينطق بكلمة أو يصغ لحديث، ولما كان بعيداً عن المائدة كان كلما يتناول شيئاً من الطعام يسقط بعضه إلى ملابسه، وكان يلقي العظام على مفرش المائدة، فلما امتلأ بطنه أخذ ينكش أسنانه ويخرج منها فضلات الأكل فيقذفها من فمه بقوة يميناً وشمالاً.

وبينما نحن شاخصون إلى حركات هذا الشيخ صاح أحدنا - آه يا عيني - وقام واضعاً يده على عينه فالتففنا حوله وسألناه الخبر، فأخبرنا بأن قطعة من العظم دخلت في عينيه، فتأملنا فلم نجد فيها أثراً، فضحك وقال: انها نفذت فيها وخرجت من الجانب الآخر!

* الشكل والجوهر:

كلما رأى الناس أن حالتهم العمومية أصبحت على غير ما يحبون ظنوا أن العيب في النظام لا في الرجال. وفكروا في وضع قواعد جديدة للسياسة والادارة والقضاء، مؤملين أن يجدوا الاصلاح الكبير.

مثلهم كساكن بيت ضعضعت جسمه الرطوبة فأراد أن يتخلص منها فغير آثاث البيت ورتبه على غير الشكل الأول ـ تعب ضائع.

* * *

* الرغبة والاستعداد:

بنتي الصغيرة التي عمرها خمس سنين تظن أنه يمكنها أن تأتي بنفسها كل ما تراني أعمله، فإذا أمسكتها من يديها ورفعتها من الأرض لأقبلها تقول لي: أنا أيضاً أرفعك، وتمسكني بيديها من أفخاذي وتجهد نفسها حتى يحتقن وجهها لتحملني كما حملتها.

وإذا رأت أن رجلاً عبر قناة ماء بوثبة تحفزت لتفعل مثله، تظن أن كل ما ترغبه جائز سهل. كذلك الرجل الجاهل، يخيل له أنه كفء لأصعب الأعمال، ومستحق لأصعب المناصب، ومساو لأرقى الرجال، يظن أنه منح استعداداً فطرياً يجعله قديراً على كل شيء، يظن أنه يطيق كل ما يريد.

* * *

* عرس:

كنت في ليلة فرح، وكانت الحفلة من أفخم وأجمل ما رأيت من نوعها، انفق فيها الذهب بلا حساب. وعند العاشرة دخل العروس، وصدحت الموسيقى اعلاناً بذلك، فقلت لصديق كان جالساً بجانبي: هذا إعلان لعامة الحاضرين بأمر سيتم بين الزوجين، كان من حسن الذوق أن يبقى مستوراً. وما أحسن ما اعتاده الغربيون، فإن الزوجين منهم يكونـان مع المدعوين إذا بهما قد اختفيا عن أعين الحاضرين بدون أن يشعر بهما أحد، ويغيبان عدة أسابيع، فوافقني صديقي على ذلك ثم قال: أتريد أن أقص عليك لهذه المناسبة شيئاً رأيته بعيني؟ قلت: نعم، فقال:

كان سني لا يتجاوز تسع سنين، ولا تزال صورة الواقعة التي سأقصها الآن محفوظة في ذاكرتي كما لو كانت حصلت منذ أسبوع. كان المنزل المقابل لمنزلنـا يستعد شيئـاً فشيئاً لحفلة كبيرة، نصبوا من أجلها سرادقاً واسعاً، ووضعوا فيه الكراسي المذهبة، وعلقوا البيارق والنجف، وكل يوم يمر يزيده في رونق الزينة وترتيبها، فلما جاءت الليلة الكبيرة أضيئت الشموع، وصدحت نغمات الموسيقى، وتقاطرت وفود الرجال والنساء إلى البيت، يدخلون منه أفواجاً، فيجلس الرجال في الصيوان، وتختفي النساء في بيت الحريم الذي كانت تسطع فيه الأنوار وتخرج من نوافذه. ونحن سكان هذا الشارع الصغار عشرين

أو ثلاثين طفلاً من كل سن كنا أول المتفرجين وأكثرهم تمتعاً، فرحين بهذه المناظر البراقة والأنوار الذهبية والأضواء المنتشرة، نجلس ونقوم ونجري ونضحك ونتشاجر سكارى من ضوضاء الأصوات وضياء الأنوار.

فلما زف العروس بعد العشاء على الطريقة المعهودة، دخل إلى البيت ودخل وراءه بعض الأولاد وكنت من بينهم، فرأيت سلم المنزل وفسحة الدور الأول مملوءة بالنساء وهن يتزاحمن للوصول إلى الصف الأول ليشاهدن العروس داخلاً. وكان أحد أقاربه ماشياً أمامه، فصار يدفعهن بيديه ليخلي له الطريق حتى وصل إلى غرفة عروسه، فادخل فيها واقفل الباب عليه، وحينئذ وقف النسوة أمام الباب كأنهن يترقبن حادثاً كبيراً، وهذا لم يمنعهن من المحادثة والمجادلة والضحك على شكل غير منتظم يستحيل معه التمييز بين من تقول ومن تسمع، ومن حين إلى حين تنادي احداهن: «هس يا ستات»، وتستمر هي في الكلام أكثر من غيرها. ما الزمن الذي مضى ونحن على هذا الحال؟ لا أدري. ثم سمعت صياحاً متكرراً أتى من داخل الغرفة، فازداد القلق والاضطراب بين جماعة النساء، وما زال يتضاعف حتى أدى بهن إلى الدق على الباب، وبعد برهة فتح الرجل الباب وظهر عاري الرأس بارق العينين محتقن الوجه، وتكلم مع أمه وأم زوجه كلاماً شديداً مصحوباً باشارات الغضب، ومن وقت لآخر كان يقول: ماذا أصنع.. لا أقدر.. وبعد مداولة صغيرة رجع ودخلت وراءه المرأتان،

وتبعه الجيش الذي كان واقفاً وراء الباب مدفوعاً كالسيل، وقد جريت معهم حتى صرت قريباً من السرير، فرأيت العجوزين قعدتا على صدر البنت، وقبضت احداهما على ذراعيها، والأخرى على فخذيها، فزاد صياح البنت، ويكاؤها، وتقدم الرجل وبيده خرقة بيضاء، رأيتها بعد ذلك ملوثة بالدم، فخرجت هارباً من هذا المنظر الشنيع، لا أشك أنهم ذبحوها!

* التحرر :

في عهد الاستبداد، في الوقت الذي كانت فيه كلمة محمد علي أو اسماعيل تكفي لاعدام من يغضب عليه أو ارساله إلى البحر الأبيض، في تلك الأيام السوداء التي كانت فيها حياة الانسان وحريته وأمواله مهددة بأنواع الخطر، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه في الوجود ضمانة تحميه، في ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم إلى صد ارادة الحاكم والتصريح بآرائهم.

واليوم زالت أسباب الخوف من الحاكم، فهل زادت قدرة الناس على المجاهرة بالحق والتصريح بآرائهم؟ من ينظر نظراً سطحياً يظن أننا بلغنا من استقلال الرأي مبلغاً لا ينافسنا فيه أحد، حيث لا يجد من الأمة أدنى أثر للخوف من الحكومة، بل يرى بالعكس ان الاستخفاف بها صار عاماً، وأنه لم يبق بين جميع طبقات الموظفين شخص محترم، أللهم إلا إذا كان جاويش البوليس أو خفير الترعة!

ولكنه إذا حقق النظر لا يلبث أن يرى حرية الانتقاد لم تستعمل إلى الآن في أعمال الحكومة إلا لأن هذه النغمة الجديدة تطرب آذان السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم.

أما المسائل الأخرى: الدينية والاجتماعية والمتعلقة بالأحوال الشخصية والعادات والأخلاق، فلم يتجه فكر الباحثين إلى انتقادها، فهل لم ير أحد منهم فيها عيباً ينتقد؟ كلا! وإنما هم يرون العيوب ولا يجرأون على إظهارها.

* المشروعات الخيرية:

قال أحد أعيان الأقاليم: في هذه الأيام كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمدارس والكتاتيب والمستشفيات ولا يمد يده أحد من الأمراء والذوات وكبار الموظفين والأغنياء المقيمين في العاصمة للاشتراك فيها ويتحمل جزءاً من مغارمها، يجب على عمد القرى وأعيانها أن ينشئوا جمعية للدفاع عن أموالهم، يسمونها جمعية منكوبي المشروعات الخيرية!

* كلما قدرت على أن أقوم بخدمة طلبها مني صديق أسفت على خسارته وعددته عدواً جديداً.

* قادتنا:

ليس في مصر عالم محيط بجميع العلم الانساني، وليس بيننا من اختص بفرع مخصوص في العلم ووقف نفسه على الالمام

بجميع ما يتعلق به، ولم يظهر منا فيلسوف اكتسب شهرة عامة ولا كاتب ذاع صيته، مثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الأمم الأخرى والمرشدون إلى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها، فإذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والسياسيون المشعوذون ـ والحقيقة المجردة عن الأوهام والأغراض أن كل ما وجد في مصر من الحرية والنظام والعدل لم يوجد ولم يستمر إلا بعمل الأجنبي وعلى رغم أهلها.

* طالب وظيفة:

زارني أحد أصحابي، وكان يرافقه شاب من أقاربه أتم في هذه السنة دروسه، وطلب مني أن أتوسط له ليحصل على وظيفة، فمددت يدي إلى هذا الشاب مسروراً فوضع فيها يداً فاترة وسحبها بسرعة. أشرت عليه بالجلوس على كرسي فاستحسن أن يجلس على « الكنبا » التي أردت أن أخص قريبه بها، وقبل أن يجلس شمر بنطلونه بعد أن تحقق من انتظام ثناياه ثم قعد ووضع رجلاً على الأخرى. سألته عن الوظيفة التي يرغبها فعلمت أنه يريد أن يعين في وظيفة مرتبها خمسة وعشرون جنيهاً في الشهر، فأفهمته أنه يطلب المحال، وان لوائح الحكومة لا تجيز هذا الطلب، فلم يقتنع، وأخذ يقيم الأدلة على أن الحكومة إذا شاءت يمكنها أن تعينه بطريقة استثنائية، فقلت له: ولكن ما هي المسوغات التي تحمل

الحكومة على تقرير الاستثناء الذي تطلب أن تتمتع به ؟ فقال : كفاءتي، فقطعت عليه الكلام، وكررت له أن طلبه غير مقبول، فحوّل وجهه عني وأخذ يفتل شاربه بحركة عصبية ثم التفت إلي وقال: «ممنون، نهارك سعيد»، وخرج، وتبعه قريبه بعد ان اعتذر لي بكلمتين، فلما خرجا سرح فكري فيما سمعت ورأيت، وتأملت في حال هذا الشاب، ووردت على خاطري أحوال أخرى وقعت من أمثاله معي ومع غيري، أحوال تنذر بوجود حالة أدبية سيئة عند الكثير من شبابنا، تجعلهم صنفاً خاصاً لا يشبهون معها شبيبة الجيل الماضي التي عاشرت كثيراً من أفرادها، ولا الشبيبة التي عرفتها في البلاد الغربية واختلطت بها زمناً. هذه الواقعة حركت في نفسي حياتي الماضية. ومثلت في ذاكرتي صور شبان محبوبين متحلين بالآداب والحياء والتواضع والانقياد، وكانوا مع ذلك لا ينقصون من جهة المعارف عما يتحصله الشباب في هذه الأيام، وإنما الفرق هو أن الشيء القليل الذي يتعلمه الشاب في هذا الزمن يتورم في مخه حتى يسد فراغه ويجعله يتخيل أنه يحمل كنوز السماوات والأرض.

* * *

* العبقرية:

العقل والجنون شيئان متضادان، ولكن حدودهما متجاورة مختلطة. وفي الحقيقة لا يعرف أحداً أين ينتهي العقل وأن

يبتديء الجنون. إن كان التوازن بين قوى النفس هو علامة العقل، فالنبوغ في المدارك والخيال يكون غالباً نتيجة اختلال في هذا التوازن.

يظهر أثر ذلك عند الكثير من أعاظم الرجال المصابين بشذوذ في الأخلاق أو نوب عصبية أو ولوع بالاعتقادات الباطلة والخرافات الصبيانية أو افراط معيب في تطلب الشهوات أو بالانفراد عن الناس والتوحش أو بزيغ في الحواس عن القوانين الطبيعية أو بأي أمر آخر يكون عنده مخالفاً أو زائداً عما تشاهد عند متوسطي الحال في الذكاء والاحساس.

ربما كان الابداع في الاختراع والتأليف وما يستلزمه من احتقان المخ واشغال الذهن وحصر الفكر وتأثر الأعصاب والجهد في توليد المعاني من أسباب تعاظم هذا الشذوذ الذي يجعل النابغة إنساناً غريباً زائداً من جهة وناقصاً من جهة أخرى.

* * *

معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر.

* مصطفى كامل:

١١ فبراير سنة ١٩٠٨، يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق. المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي.

رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً، وزوراً مخنوقاً، ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه، حزن ساكن مستسلم للقوة، مختلط بشيء من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت، وعبارات متقطعة، وهيئة يائسة، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل المدينة.

ولكن هذا الاتحاد في الشعور بقي مكتوماً في النفوس، لم يجد سبيلاً يخرج منه، فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل انسان.

أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً في قوة جماله، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها في العاصمة، ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر.

هذا الاحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي يبتسم في وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة، هو المستقبل!

المصادر

- الزركلي: (الاعلام) طبعة بيروت.
- سركيس: (معجم المطبوعات العربية والمعربة) طبعة القاهرة ١٩٢٨.

الطهطاوي: (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد عمارة، طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٣.

- قاسم أمين: (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد عمارة، طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٦.
- كحالة: (معجم المؤلفين) طبعة دمشق.
- الكواكبي: (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد عمارة طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٥.

محمد حسين هيكل (دكتور): تراجم مصرية وغربية، طبعة القاهرة، مطبعة مصر، بدون تاريخ.

- محمد عبده (الأستاذ الإمام): (الأعمال الكاملة)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد عمارة، طبعة المؤسسة العربية، بيروت سنة ١٩٧٢.
- محمد فؤاد عبد الباقي: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)، طبعة دار الشعب، القاهرة.
- المعري (أبو العلاء): (لزوم ما لا يلزم)، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي، طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤.
- الموسوعة العربية الميسرة: طبعة القاهرة، الثانية.

فهرس

مطابع الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE



قاسم أمين

... إن الخلاف شديد حول قاسم أمين ؟!..

- هل هو « نافذة للتغريب » هبّت منها رياح « التحلل » على عالم المرأة المسلمة ؟!..

- أم هو بطل التحرير للمرأة من « أغلال عصر الحريم » ؟!..

ثم .. ماذا عن رأيه فى « التمدن الإسلامى » ؟!... وهى صفحة . فى فكره . يجهلها الكثيرون ؟!..

... إنها - إذن - قراءة جديدة . ومثيرة ، لقاسم أمين .. يقدمها هذا الكتاب !..

الغلاف للفنان حلمى التونى

© دار الشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - ت ٧٧٤٥٧٨ / ٧٧٤٨١٤
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - ت ٣١٥٨٥٩ / ٧٣١٢